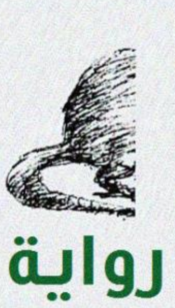
جون شتاينبك

الفئران و الرجال



رواية

ترجمة توفيق الحسيني

الفئران والرجال

* الفئران والرجال .

* تأليف : جون شتاينبك .

* ترجمة : توفيق الحسيني .

* الطبعة الأولى – دمشق ١٩٩٩م .

* ١٠٠٠ / ١٩٩٩ .

تصميم الغلاف الفنان التشكيلي جهاد موسى (جنكو)

جون شتاينبك

الفئران والرجال

ترجمة : توفيق الحسيني

الفصل الأول

على بُعد فراسخ في الجنوب من (سوله داد) يلعق نهر (ســاليناس) سفح هضبةٍ حيث تتجمع مياه هذا النهر وتصبح لجاً سحيق الغـور ، وتتلـون بالخضرة . مياه هذا النهر دافئـة بفعـل انسيابها فـوق الرمـال المتألقـة الـتي سفعتها أشعة الشمس الملهبة .

على إحدى ضفتي النهر اصطفّت روابٍ لامعة إلى حدود التوهّج في رتلٍ متناسقٍ حتى جبال (غابيلان) ، وعلى الضفة الأُخرى للنهر يلوح للأبصـار وادٍ انتظمت عليه صفوفٌ من الأشجار ، أشجار السرو والحور ، التي يضفـي عليها فصل الربيع ذلك الطلاء الأخضر . في الشتاء تتلطّخ أوراق أغصانِ هـذه الأشجار المتدلية بأوضار السيول .

على ضفة النهر الرمليـة مـن جهـة الـوادي تسـاقطت أوراق الأشجار الذاوية على أديم الأرض وتراكمت كطنفسةٍ سميكة ، وقد ذبلت ونضبت هذه الطنفسة ، فإذا دبّت عليـها سحلية أو زحفـت عليـها عظـاءة سُمعت لهـا خشخشة تصل إلى عنان السماء .

في المساء تخرج الأرانب من بين الأدغال تاركةً وجارهـا وتـأتي لتجثم فوق الرمال . وعلى الرمال الندية ، تظهر آثارٌ لبراثن حيـوان (الراكـون) ، وتبرز آثار أخرى كبيرة لمخالب الكلاب أو سنابك الوعول والأيائل الـتي تـؤمُّ المكان لإرواء ظمئها .

بين أشجار السرو والحور ممرٌ صلبتْ أرضه وقست من فرط ما سارت عليها أقدام الأطفال في المزرعة المجاورة ، الذين يقصدون المكان بغية العوم في مياه النهر ، وكذا أقدام عابري السبيل المرهقين ، الآتين من الطرق العامة يرومون الاستجمام والترويح عن أجسامهم التي أضناها وعثاء السفر .

تحت فننٍ من أفنان دوحةٍ كبيرة ، كثيب من الرمال ينبئك بأن النيران أوقدت هناك مراراً . ويبدو على ذلك الفرع المتدلي ، الغريب من الأرض ، أنه قد اتُّخِذ مكاناً للجلوس ، فقد نُزِع عنه اللحاء ، فبدا أجرد مصقولاً ناعماً من كثرة الجلوس عليه .

بُعيد أمسية يومٍ قائظ بدأت الأنسام العليلة تخفق بين الأوراق فترتعش. كان الظلام يزحف نحو الشمال بطيئاً متثاقلاً ، وعلى الضفة الرملية ظهرت الأرانب الجاثمة كهياكل صغيرة نحتت من صخور سوداء . وعلى حين غرةٍ مزّق الصمت صخبٌ آتٍ من جانب الطريق ، من أوراق شجر الصفصاف القاتمة فلاذت الأرانب ، وقد قوّست ظهورها وطامنت من شخوصها ، بأوجرتها . ثمّ سار طائر الكركي ذو الساقين الطويلتين على براثنه بكسلٍ وخمول ، ثمّ ارتفع ومرّ من فوق النهر بجسمه الثقيل ، وهكذا اختفت كل معالم الحياة برهةً من الزمن ، ومن بعد ذلك لاح على الممر رجلان يتجهان إلى المياه الخضراء ، يسير أحدهما خلف الآخر ، وما زالا كذلك حتى بعد وصولهما إلى الطريق العريض العام . كانا يرتديان سراويل

ومعاطف مصنوعةً من قماشٍ أزرق ذات أزرار نحاسية وعلى رأس كل منهما قبعة سوداء متجعدة وعلى عاتق كليهما بطانية .

كان الشخص الذي يسير في المقدمة ، ربع القامة ، وافر النشاط ، خفيف الحركة ، ذا بشرةٍ داكنة ، متيقظاً حاد النظرات ، ومن سماته الشخصية التي بدت للعيان ، يداه الصغيرتان القويتان وكتفاه النحيلتان والعرنين الدقيق . أما الذي كان يسير من خلفه فقد بدا على النقيض منه ذا وجهٍ منبسط وعينين نجلاوين ذابلتين عريض ما بين المنكبين المنحدرتين نحو الأسفل .. وكان هذا الرجل هائل الجثة ، ضخماً أدنى إلى عملاقٍ من العمالقة .. كان يجرجر قدميه وراءه مثل دبٍّ ويسير سيراً مضطرباً .. ولم تكن يداه المتدليتان تتحركان قط ، وحين بلغا الأرض المنبسطة الجرداء توقف ذاك الرجل السائر في المقدمة بغتةً ، فكاد أن يصطدم به رفيقه الذي كان يسير خلفه على مسافةٍ قريبة . نزع قبعته .. وبإصبع (السبابة) طرد الذباب ونفض عن وجهه قطرات العرق .. أما رفيقه فألقى عباءه عن كاهله ووضعه على الأرض ، وانبطح على الأرض منكفئاً على وجهه وعبَّ من المياه الخضراء. شرع يشرب بتعجّلٍ وجلبة مثل حصانٍ ظامئ ، فاتجه إليه الرجل القميء بحنق ، وصرخ فيه :

– لانيا .. لا تفرط في الشرب يا لانيا .

لكن لانيا ظلّ مثابراً على العبِّ من المياه الراكدة . فأضاف :

– لانيا .. ستمرض مرةً أخرى كما في ليلة أمس .

غطّ لانيا رأسه مع القبعة في الماء ، ثم جلس على ضفة النهر . كانت المياه المنسابة من قبعته المبتلّة تتسلل من خلف رقبته إلى قميصه الأزرق وتتغلغل إلى جسمه ، وقال :

– هذه هي الحياة ... أنت أيضاً اشرب قليلاً يا جورج .

وفي مزيدٍ من الأناة ، طرح جورج أثقاله عن كاهله ووضعها برفق على الأرض ، وقال :

– يبدو لي أن هذه المياه آسنة .. انظر .. فها هو الزبد يعلو صفحتها حركة خفيفة من الماء جعلته ذاهبةً آيبة ، ثم طفت على السطح حلقات مستديرة انداحت ثم تراجعت . كان لانيا يرنو إليها متأملاً ، حين قال:

– انظر .. انظر يا جورج إلى صنيعي .

جلس جورج إلى جانب الماء ، وطفق يعبُّ منه عبّاً وئيداً ملء راحتيه ، ثم قال :

– طعمه ليس رديئاً ، ولكنه لا يشبه مذاق المياه الجارية ... إياك أن تشرب من المياه الراكدة يا لانيا .. بل اشرب متى واجهتك مياه الينابيع الجارية ، كلما نال منك العطش .

نثر بعض الماء على وجهه ، وبيديه غسل مأبطيه ومؤخرة عنقه ، ومن بعد ذلك أعاد القبعة إلى رأسه ونأى قليلاً عن الضفة ، وجلس القرفصاء وانحنى بعطفيه على ركبتيه . أثار ذلك فضول لانيا ففعل مثلما فعل تماماً ... تراجع إلى الوراء ، ثم جلس ورفع ركبتيه وأمسك بهما بكلتا يديه وكأنه

يقول: هل نجحت ؟ وطفق يرنو إلى جورج ، ولكي تكون وضعية قبعته مشابهة لقبعة جورج شبهاً كلياً فقد خفضها وأنزلها إلى ما فوق حاجبيه .

كان جورج ينظر إلى المياه بائساً ذليلاً ، وقد سفعت الشمس محياه فاحمرّ ما حول عينيه . وأخيراً قال غاضباً :

– لو أن ذاك السائق الأرعن لم يطلب إلينا النزول لاستطعنا بلوغ المزرعة على متن الحافلة .. ولكنه قال لنا : إن المسافة خطوة أو خطوتان فقط .. هذا السافل جعلنا نترجل على بعد أربعة أميال من المزرعة لأنه كان راغباً عن التوقف قبالة بوابة المزرعة ... لقد مكر بنا الرجل ... ولعل ذلك الكلب ابن الكلب كان يربأ بنفسه أن يتوقف في (سوله داد) فنبذنا في العراء قائلاً : « الطريق ليس سوى خطوتين » . ولكن المسافة كانت تنوف على أربعة أميال وكان الهواء ساخناً إلى حدّ لا يقبلُ التصديق .

نظر إليه لانيا على وجلٍ وحذر ، فقال :

– ما بك أيها الرجل ؟

– إلى أين نحن ماضون يا جورج ؟

ضرب الرجل الربع القامة بيده على قبعته وأزاحها إلى الجهة الأخرى وحدّق في لانيا ساخطاً يتطاير من عينيه الشرر ، وقال :

– إذن لقد نسيت .. ها ؟ لا بدّ لي من الإعادة والتكرار ، آهٍ منك أيها المأفون .. سرعان ما تنسى . فقال لانيا في خنوع :

- أجل ، لقد نسيت ، جاهدت - تباً لي - كي لا أنسى .. أجل يا جورج ، لقد بذلت قصارى جهدي من أجل أن لا أنسى يا جورج .

- لا بأس .. لقد فهمت .. سأشرح لك ، وهل لي عمل سوى ذلك ؟ سأجلس وأروي لك كل شيء مفصلاً ... واحداً تلو الآخر دون أن يجدي ذلك نفعاً ... فسوف تنسى ، سأتحدث إليك من البداية إلى النهاية .

- لقد أسفت وتألمت .. ولكن لم يكن في اليد حيلة ..لم أنسَ الأرانب يا جورج .

- دعك من الأرانب يا " ولد " ... وفي الحقيقة ليس في ذهنك سوى الأرانب .. هيا .. أصغِ الآن ... حاول هذه المرة واشحذ عزيمتك حتى لا تنسى كي لا تلمّ بنا المتاعب ... كنتَ جالساً على قارعة الطريق في شارع (هاوارد) تحدّق في اللوح الأسود ... هل تذكرت الآن ؟

أشرق وجه لانيا بابتسامة فرح وتهللت أساريره وقال :

- آه .. لقد تذكرت .. لقد تذكرت يا جورج .. ولكن ماذا فعلنا بعد ذلك ؟ هناك مرّت بعض النسوة من أمامنا .. قلت لي بأن .. قلت لي بأن ...

- دعك مما قلت ... ولكن هل تذكر أننا ذهبنا إلى دائرة شؤون العمال في (موراي) و (ديدي) حيث مُنِحنا بطاقات العمل وتذاكر السفر؟

- أجل يا جورج ... لا ريب ... أذكر ذلك .

وعلى حين غرّة دسّ يده في جيبه ، وقال بصوتٍ خاشعٍ كالهمس :

- لا وجود لبطاقتي يا جورج .. لا بدّ أنني فقدتها .

كان قد استغرقه همٌّ لا طاقة له به ، فأطرق برأسه ، ولم يستطع أن يرفع عينيه عن الأرض .

– ومتى كانت البطاقة في حوزتك ؟ حتى تفقدها أيها الأبله ؟ البطاقتان ها هنا .. وهل أستطيع تسليمك بطاقات العمل في يوم من الأيام .

عندئذٍ انبسطت أسارير لانيا قليلاً ، وقال :

– ظننت أنني قد وضعتهما في جيبي .

ثمّ دسّ يده مرة أخرى في جيبه وجورج يرمقه ، وقال :

– ماذا أخرجت من جيبك ؟ . لجأ لانيا إلى المراوغة وقال :

– ليس في جيبي شيء ! .

– لا تكذب .. ها هو في يدك .. ما هذا الذي نخفيه في يدك ؟ .

– أقسم بشرفي ... إنه ليس بشيء .

– هاته ... لأنظر إليه .

كان لانيا يبذل غاية جهده لإبقاء يده بعيدةً عن متناول جورج .

– ليس في يدي شيء .. ليس فيهما سوى فأر .

– فأر ؟ فأر ذو روح ؟ .

– ماذا قلت ؟ بل هو فأر نافق يا جورج ... لم أقدم على قتله ... أقسم بشرفي .. لقد عثرت عليه ملقى على الأرض ، عثرت عليه وهو نافق .

– هيا ... ناولنيه .

– لا تسلبنيه يا جورج ... وأي ضير في ذلك ؟

- هيا أعطنيه .

انبسطت يد لانيا المنقبضة رويداً .. رويداً .. فتناول جورج الفأر ، وقذف به إلى الطرف الآخر للنهر بين الأدغال .

- ماذا كنت تفعل بفأر نافق ؟

- كنت ألامسه بإصبعي (السبابة) ونحن نسير .

- إذن عليك أن تكفّ عن عبثك هذا ... هلم أخبرني إن كنت تذكر، إلى أين نحن سائرون ؟ .

في البدء ذُهل لانيا وحار في أمره ، وانتهى به الحال إلى الخجل والارتباك ، فأخفى وجهه بين فخذيه :

- لقد نسيت مرة أخرى . قال جورج :

- واويلتاه ... حسناً .. أصخ السمع ... عما قليل سنذهب للعمل في مزرعة كتلك المزرعة في الشمال ، التي كنا نعمل فيها .

- في الشمال ؟ .

- في (ويد) .

- آه .. صحيح .. لقد تذكرت .. في ويد .

- هذه المزرعة الواقعة في هذه الأنحاء ، ليست بعيدة . وسوف نذهب إلى (المعلم) .. أصغِ إلي الآن .. سنسلمه البطاقات ، بطاقات العمل ، ولكن إياك أن تتفوه بكلمة واحدة .. عليك بالصمت ، ولا تنبس ببنت شفة .. إنه لو اطّلع على مدى بلادتك لأَنِف أن يسند إلينا عملاً .. وهو إن رأى همتك

ومدى قدرتك على أداء العمل لأضحينا في أحسن حال ؛ واستقامت أمورنا ، وأفلح مسعانا .. هل فهمت ؟ .

– لقد فهمت يا جورج .. لقد فهمت .

– حسناً .. قل لي الآن .. ماذا ستصنع عند وصولنا إلى المعلم ؟ .

بدا على وجه لانيا الوجوم ، وامتقع ، وتوترت قسماته وهو يفكر .. ثم قال :

– أنا .. أنا .. لن أقول شيئاً .. لن أنطق بكلمة واحدة .

– مرحى .. إنك تسير نحو الأفضل .. كرر ذلك وأعد كلامك حتى لا تنسى . همس لانيا :

– لن أقول شيئاً .. لن أقول شيئاً .. لن أقول شيئاً .

قال جورج :

– حسناً ... لقد أسأت التصرف في (ويد) ، فهل ستحاول أن لا ترتكب حماقة ؟ . قال لانيا حائراً :

– وماذا فعلت في (ويد) ؟

– وهل نسيت ذلك أيضاً ؟ لن أذكّرك به لأنك ستعود إلى النسيان .

أشرق محيا لانيا ببصيصٍ من الألق ، فهتف جذلاً :

– لقد طردونا من (ويد) . فقال جورج في نزق :

– عن أي طردٍ تتحدث .. لقد فررنا من هناك . طاردونا .. بحثوا عنا، ولكنهم أخفقوا في العثور علينا .

قال لانيا بصوتٍ خافت مشوب بالبهجة ، تلوح عليه السعادة :

- انظر .. أقسم لك .. أنني ما نسيت ذلك .

اضطجع جورج على الرمال ، ووضع كفيه تحت رأسه ، ففعل لانيا مثل فعلته ، ولكي يشعر بالطمأنينة رفع رأسه ، ونظر إلى جورج . قال له جورج :

- هل تعلم بأنك بلية عظيمة ؟ لو لم تكن برفقتي ، لكنتُ خليّ البال، مرتاح الخاطر ولكنتُ في سعادةٍ وسرور ، وربما تزوجت .

مكث لانيا في مكانه صامتاً هنيهة ، ثم قال في ابتهاج :

- إننا ذاهبون من أجل العمل إلى المزرعة .. أليس كذلك يا جورج ؟

- حسنٌ جداً .. حسنٌ أنك وعيت .. ولكننا سننام هنا ، هذا ما يقتضيه أمرنا .

سرعان ما هبط الليل ، وادلهمّت الأرجاء سوى قمة جبل (غابيلان) التي بقيت متألقة وهي تتلقى فيضاً من أشعة الشمس التي بدأت تنأى عن الوادي ؛ ظهر ثعبان بين المياه وقد أخرج رأسه الذي تأرجح مثل مثقافٍ وبدأ يتموج ، وبسبب حركة المياه كانت شجيرات القصب تهتز وتميد ، ومن فوق الطريق العام اللاحب هدر صوت رجلٍ صارخ لعلع في الفضاء ، ثم علا صراخ رجل آخر مستجيباً لندائه ، وهبّت أنسام رخية تغلغلت بين أوراق أشجار السرو فتحركت وسُمِع لها حفيف ، وما لبثت إلا قليلاً حتى عادت إلى السكون .

– لماذا لا نذهب يا جورج إلى المزرعــة ونتنـاول عشـاءنا هنـاك ؟ ففـي المزرعة يبذل الطعام .

استدار جورج إلى الجانب الآخر ، وقال :

– ليس علي أن أبالي بك فقد استمرأت المكان ، وفي غداة غد سنذهب إلى العمل . لدى مجيئنا شاهدت بعض الحافلات .. في الغد سـنحمل غرائـر الشعير ، وسوف ينبثق اللبن الذي ارتضعناه في الصغر من أنوفنـا ... هنـا في هذه الليلة سأرقد على ظهري ، وهذا هو ما يمليه عليّ قسمي .

نهض لانيا وجلس القرفصاء ، وحدّق في جورج ، وقال :

– ألا نتناول طعاماً ؟

– هيا اذهب إلى الأدغال واجلب بعض الهشـيم والأغصـان اليابسـة ، ففي جعبتي ثلاث علب من الفاصولياء ، ومتـى انتـهيت مـن ذلـك أعطيتـك علبتك الثقاب لإضرام النار ، ثم سنطبخ الفاصولياء ونتناول طعامنا .

– إنني أشتهي الفاصولياء المطبوخة في عصير (البندورة) .

– ولكن مـا العمـل ؟ فليـس لدينـا عصير (البنـدورة) . اذهـب الآن واجلب حزمة من القش والأعواد المتيبسة ... إيـاك أن تتـأخر ، فقـد أوشـك الظلام أن يخيم في كلّ الأرجاء .

هبّ لانيا على قدميه متقاعساً خـاملاً ، واختفـى في الأرض المقفـرة ، ومكث جورج لا يريم مكانه مضطجعاً يصفّر بأغنية .

صدرت جلبة عن المياه في تلك الجهة التي قصدها لانيا ، فكفّ جورج عن صفيره ، وشرع يصغي باهتمام ، ثمّ حدّث نفسه :

– يا للبائس المسكين ! . قال ذلك ثم استأنف الصفير .

لاح لانيا من بين الأدغال ، وفي يده غصنٌ يابس من شجر الحور ، فباغته جورج قائلاً:

– هيا .. أعطني ذلك الفأر .

مرة أخرى لجأ لانيا إلى المراوغة والمناورة ، وقال :

– أي فأر يا جورج ؟ ليس معي أيُّ فأر .

– هيا أعطني الفأر ولا تحاول خداعي .

توقف لانيا ، ثمّ تقهقر إلى الوراء ، وكأنه يسعى إلى الفرار والنجاة ، وهو يرمق ناحية الأدغال . لكن إصرار جورج لم يهِن ولم يتبدل موقفه وأعاد عليه المسألة :

– إن لم تسرع في تسليمي ذلك الفأر لهويت بلكمة على وجهك .

– وماذا تريد أن أعطيك يا جورج ؟

– إنك تعلم كخنزير ماذا عليك أن تعطيني ... إنني أريد ذلك الفأر .

دسّ لانيا يده – دون رغبة وعلى مضض – في جيبه وبحث فيه ، وقال بصوتٍ ذليل ومبهم :

– لماذا تمنعني ؟ إنه ليس ملكاً لأحد ، ولم أسرقه من أحد ، لقد وجدته نافقاً ملقى على قارعة الطريق .

امتدت إليه يد جورج بطريقة تنطوي على الأمر ، كما يتصرف امرؤٌ مع كلبه إذا ألقى إليه بكرة فلم ينصع لأمره ولم يحضرها له . دنا من لانيا، فتراجع إلى الوراء ، لكنه ثابر على الاقتراب منه . صفق جورج ، وإثر ذلك قدّم لانيا له الفأر وقال :

– إنني لم أقترف منكراً يا جورج ... كنت أربت عليه وأمسّده .

نهض جورج ورمى الفأر بكل ما أوتي من أيدٍ وقوة إلى تلك الأرض المقفرة المعتمة . ثمّ اقترب من المياه ورفع يديه نحو السماء ، وقال :

– أيها المعتوه الكبير ! عندما يخطر ببالك الذهاب إلى الضفة الأخرى للإمساك بالفأر يخيل إليك أنني لن أشاهد رجليك المبللتين . ولما سمع لانيا وهمساته ردّ عليه بقسوة وضراوة :

– انظروا إليه ... إنه كالحمار ... يجلس كالأطفال ، ويجأر صارخاً.

ذهب لانيا إلى خلف الدوحة الكبيرة وجلب حزمة أغصان وأوراق جافة ، وطرحها فوق ركام الرماد القديم ثمّ عاد أدراجه ليحتطب ويجلب قشاً آخر .

كان الظلام الدامس قد استحوذ على كل الأنحاء ، وكان رفيف يسمع أجنحة اليمام من جانب المياه . دنا جورج من كومة الهشيم وأضرم فيها النار، تأججت النار وصدرت طقطقة من الحطب اليابس المحترق . أخرج جورج من جعبته ثلاث علب من الفاصولياء ووضعها على كثب من النار المتقدة بحيث لا تسقط فيها . قال جورج :

– هذه الفاصولياء تكفي أربعة أشخاص .

وبينما كان لانيا ينظر إلى الجهة المتقدة من الموقد قال وكأنه قد أسلم أمره إلى الأقدار :

– إنني أشتهي الفاصولياء مطبوخاً بعصير (البندورة) فاحتدم حنق جورج وقال :

– ليس في حوزتنا عصير البندورة ... إنك لا تطلب إلا الأشياء المفقودة .. آه .. ليتني كنت وحيداً لعشت حياةً هانئة وهادئة ... ولعثرت لي على عمل أو وظيفة ، ولا اعترضتني المتاعب ولا نغّص حياتي منغّص ، ولتقاضيت في مستهل كل شهر خمسين دولاراً ، ولقصدت المدينة لأحيا هناك كما يملي عليّ الهوى ، ولأمضيت الليالي في المواخير ومعاشرة المومسات مادام جسدي يهفو إلى ذلك ... ولتناولت طعامي هناك كما تصبو إليه نفسي ، ولقضيت أوطاري وأشبعت كل غرائزي ورغائبي وأرضيت نوازعي ... آه .. ما أبهى ذلك وما ألذه ... كنت سأفعل ذلك كلما هلّ شهرٌ جديد ... أو لكنت ابتاع قارورة كبيرة من (الويسكي) ، أو ذهبت إلى أحد المقاهي وشاطرت الآخرين اللعب بالورق ... أو مارست رياضة (البليياردو).

كان لانيا يجلس القرفصاء ويراقب هيجان جورج من فوق النار الموقدة وقد نفض وجهه فزعاً ورعباً . تابع جورج حديثه غاضباً :

– ولكن ماذا يسعني فعله ؟ إني أجرجرك خلفي ولا يقرّ لك قرار ولا تدوم على حال .. تفسد لي كل عمل أعثر عليه ، وتتلف مشروعي ، وليس

لك عمل أو شاغل سوى أن تتسكّع هنا أو هناك .. وليت الأمـر اقتصر علـى ذلك ... لكنك تحشر رأسك في المآزق وترتكب الحماقات وأنـا أتحمـل نتـائج أفعالك .

كان صوته يدوي ويلعلع ، ويتكلم صارخاً :

– دبٌّ أنت أيها الرجل ... ما من ويلٍ لم يُحق بي بسـبب طلعتـك .

قال لانيا بصوتٍ مغناج ، شبيه بصوت الفتيات الصغيرات وهنّ يتناجين :

– كنت أرغب في ملامسة رداء تلك الفتاة ... كنت أريد أن ألمسه كما ألمس الفأر .

– وأيان لتلك الفتاة أن تعرف أنك كنت تنوي لمس ردائها فحسب ؟ وأنك لا تنوي بها شـراً . لقـد أجفلـت هـولاً وذعـراً ، فطاردنـا البعـض مـن الفتيان، وخشية سطوتهم أمضينا يوماً كاملاً في ذلك المستنقع ... ولم ننجُ إلا بفضل حلول الليل ... هذا هو دأبك ، دائماً تجترح مثـل هـذه الهفوات ... جديرٌ بك أن تُحبس في قفص وتُعطى ألف ألف فأر لتعيش معها حياةً هانئة .

خفت صوته ثمّ همد وتلاشى سـخطه ، ورنـا إلى وجـه لانيـا المجلـل بالهمّ من فوق اللهيب وما لبث أن أحسّ بالخجل وشرع ينظر إلى ألسنة النار.

كان الظلام قد غمر كلّ الأشياء ، لكـن النـار المتأججـة كـانت تضـيء أعالي الأشجار وأسافلها فبدت كالقباب .

جرجر لانيا القريب مـن النـار جسـمه في خـدر شـديد إلى مقربـة مـن جورج، وجلس على رؤوس أصابعه . ولكي يسخّن جورج الطرف الآخـر مـن

العلب فقد غيّر مواقعها ، وكان يتصرف وكأن لانيا ليس له وجود . هتف لانيا بصوتٍ خفيض :

- جورج ! .

ظلّ جورج غارقاً في الصمت ، فعاد إلى القول :

- جورج !! .

- ماذا ؟ .

- لقد كنت أهزل يا جورج ... لست أرغب في عصير البندورة ... ولئن وجدته الآن أمامي الآن لما تذوقته .

- لو وجدته لأعطيتك .

- ما كنت سأتناوله يا جورج ، وكنت سأتركه لك كله لتسكبه على الفاصولياء كما تشتهي وترغب .. أجل ما كنت سأتذوقه .

واظب جورج على التحديق في النار عابس الوجه مكفهرّ القسمات :

- لو لم تكن معي لكنت في غاية السعادة ، وكلما خطر لي هذا الخاطر كدت أن يصيبني مسٌ من جنون ... وبسببك لا أستطيع أن أرتاح دقيقة واحدة .

كان لانيا لا يزال جالساً على رؤوس أصابعه ، ينظر إلى الأطياف فيما وراء النهر . قال :

- جورج .. إن شئتَ تركتك وذهبت ... تركتك وشأنك .

- وهل تستطيع الذهاب ؟ .

– سأذهب إلى ذرى تلك الجبال ... ألا أستطيع العثور على مغارة ؟

– آه ... هكذا .. حسناً ، وماذا ستأكل ؟ وهل لديك من العقل ما يسعفك على تدبر أمر قوتك ؟ .

– سأعثر على شيء يا جورج ... لن أبحث عن عصير البندورة وأطايب الطعام ... سأنام في العراء ، ولن يؤذيني أحد ... ومتى وجدت فأراً اصطحبته معي في تجوالي ... ولن يأتيني أحد لينتزعه مني .

نظر جورج باهتمامٍ شديد إلى لانيا بعدما أدار إليه رأسه ، وقال :

– لعلك تزعم أنني لا أحسن معاملتك ؟ .

– إن كنت متبرماً بي فسوف أذهب إلى قمم الجبال بحثاً عن مغارة ... ومتى شئتَ ذلك ذهبت وتركتك وشأنك .

– لا .. لا .. أصغِ ... لقد قلت لك ذلك وأنا هازل ، أريدك أن تمكث إلى جانبي يا لانيا ... لست ناقماً عليك ، غير أن لك فعلة مستهجنة، وهي كلما ألفيت فأراً وأمسكته ، قتلته . توقف عن الكلام ثمّ استأنف :

– انظر إلى ما سأفعل ... في أول فرصةٍ سانحة سأعطيك جرواً من جراء الكلاب .. ربما لن تقتله .. إنه خيرٌ من الفئران .. ثمّ إنك ستستطيع لمسه أكثر .

لم يقتنع لانيا بهذه الفكرة ، ولم يرضخ لهذا الاقتراح لأنه يعلم أن كفته هي الراجحة ، وقال :

– إن كنت ممتعضاً مني فقل لي جهاراً .. فإني سآوي إلى رؤوس هـذه الجبال ... سأصعد إلى ذروة ذلك الجبـل الشـاهق وسـأعيش منفـرداً ... ولـن يكون بوسع أي كائن أن يسلبني فئراني . قال جورج :

– إني أرغب في بقائك يا لانيا .. ولكن متى أويت إلى الجبال بمفردك لحسبك من يراك دباً وأجهزوا عليك .. لا .. لا .. سـتلبث في معيـتي .. إن الخالة (كلارا) ، وإن تكن قد ماتت فإنها ستمقت وحدتك وانفرادك .

قال لانيا بشيءٍ من الغبطة والتوسل :

– تحدث .. تحدث .. كما كنت تفعل دائماً .

– عمّ تريدني أن أتحدث .

– تحدث عن الأرانب . قال جورج مقتضباً :

– لا تتعب نفسك دون جدوى ... مهما حاولت فلن تبرح هذا المكان.

عاد لانيا إلى الترجي :

– هيا يا جورج ... أي ضير في ذلك ... حدّثني كما عهدتك .

– إذن فـأنت شـديد التـوق إلى سمـاع ذلـك ؟ حسـناً سـأحدثك ، ثـم سنجلس لتناول طعامنا .

مال صوت جورج إلى الرزانة والوقار ، وحدّثه حديثاً لا التـواء فيـه ، حديثاً مستفيضاً دون تلكؤ أو جمجمة ، وكأنه قد اعتاد عليه وألفه مـن كـثرة التكرار :

– إن الأشخاص الذين هم على شاكلتنا ، ويخدمون في المزارع ، ليس لهم في هذا العالم ظهرٌ أو أهل ... إنهم وحيدون ، وليس لهم من موئل أو مأوى ، لذلك يؤمون المزارع لكسب بعض المال ، وحين يزورون المدينة يصرفون بين عشيةٍ وضحاها كل ما اقتنوه ، وإذ يفلسون يعودون خانعين أصاغر إلى مزارعهم ... ليس في أذهانهم أية خطة أو مشروع للغد الآتي .

سُرَّ لانيا بالغ المسرة ، فقال مبتهجاً :

– حسناً ... حسناً تحدث الآن .. عنا .. وكيف نحن ؟ .

تابع جورج :

– إننا لسنا كذلك .. فلنا آمال .. ولنا طموح .. لأن هناك من قد يتحدث إلينا ونتحدث إليه ويهتم بنا . لسنا كأولئك العاتلين المشردين دون مأوى أو ملاذ ، لسنا مثل أولئك الذين يقصدون الحانات ، وينفقون كل أموالهم التي جمعوها بشقِّ الأنفس ... وهؤلاء إذا أدخلوا السجن ، وساء مصيرهم لم يجدوا من يبالي بهم أو يشفق عليهم .. ولكننا لسنا كذلك .

فتدخل لانيا قائلاً :

– إننا لسنا كذلك ، ولماذا لسنا كذلك ؟ لأن .. لأنني كائنٌ لك .. وأنت كائنٌ لي . ضحك من الحبور وقال :

– الآن .. تكلم يا جورج .

– مادمت تعرف فأنت أيضاً تستطيع التحدث .

– لا .. أنت الذي يجب أن يتحدث . لأنني دائماً أنسى بعض الأمور ... ماذا سنفعل ؟ قل لي .

– وماذا سيحدث ؟ في أحد الأيام سنجمع دراهمنا التي ادخرناها ، وسنبتاع فدان أو فدانين من الأرض ، وسنقتني بقرة وعدداً من الخنازير . قال لانيا بصوتٍ صاخب :

– سنعيش كالأثرياء .. وستكون في حوزتنا الأرانب .. قل .. تكلم يا جورج عن الأرانب وأقفاصها .. قل لي كيف تهطل الأمطار في الشتاء .. تحدّث عن موقدنا .. إن القشطة التي ستعلو صفحة الحليب ستكون كثيفة فلا يمكن إزالتها إلا بواسطة مدية أو ملعقة . قال جورج :

– لماذا لا تتحدث أنت بنفسك ، فإنك ملمٌّ بكلّ الأشياء إلماماً حسناً .

– لا .. لا .. تحدث أنت ، فلحديثك نكهة أخرى ... استمرّ يا جورج .. كيف سأعتني بالأرانب ؟ .

– نعم .. ستكون لنا حديقة .. حديقة تُزرع ببذور البطيخ .. وسيكون لدينا قن بين الأرانب للدجاج .. وحين يبدأ هطول الأمطار في الشتاء سنتوقف عن العمل ... وإذ ذاك سيكون لنا وقت للراحة والاستجمام ، وسنصغي إلى صوت رذاذ المطر ، وسنكون في أقصى درجات الحبور والغبطة. ثمّ أخرج مديته (المطواة) من جيبه ، وقال :

– لا أجد مزيداً من الوقت للتحدث إليك .

وضع مديته تحت إحدى العلب وفتحها وسلّمها إلى لانيا ، ثمّ فتح العلبة الثانية وأخرج من جيبه ملعقتين .. سلّم إحداها إلى لانيا ... وأمام النار المتأججة ملآ أفواههما بالفاصولياء وطفقا يمضغانها على عجل ... انبثقت حبات من الفاصولياء من فم لانيا ، فأومأ إليه جورج بملعقته :

– غداً إذا ألقى (المعلم) عليك أسئلة فبماذا ستجيب ؟ .

ازدرد لانيا اللقمة التي كانت تملأ فمه ، ولاح الاهتمام على محياه :

– سأقول .. ماذا سأقول ؟ .. آه .. لن أقول شيئاً .

– مرحى لك .. أحسنت . أحياناً تسير نحو الأفضل سيراً حثيثاً . وعندما نمتلك من الأرض فداناً أو فدانين فسوف أكِلُ إليك مهمة رعاية الأرانب .. ولا سيما وأنت تتذكر هذه الأشياء .

تهلل وجه لانيا وغمره شعور بالفرح وقال :

– لقد تذكرت .

أومأ جورج بملعقته إشارةً أخرى ، وقال :

– أصغِ يا لانيا .. اعرف هذا المكان جيداً .. إنك تستطيع أن ترسّخ هذا المكان في ذاكرتك .. أليس كذلك ؟ . المزرعة بعيدة عن هذا المكان مسافةً طويلة .. فإذا سرت مع النهر وصلت إلى هنا . فقال لانيا :

– لا ريب في ذلك .. سأتذكر .. ولن أنبس ببنت شفة كما لقّنتني .

– إن كان الأمر كما تزعم ، فاستمع إليّ يا لانيا : إن أقحمت نفسك في المتاعب كالمرة السابقة .. ففرّ إلى هذا المكان واختبئ بين الأدغال . قال لانيا هامساً :

– أجل سأختبئ بين الأدغال .

– إلى أن آتي إلى هنا وألتقي بك ستظلّ مختبئاً بين الأشجار ، فهل تستطيع أن ترسخ هذا في ذهنك ؟ .

– سأستطيع يا جورج ... سأمكث متخفياً بين الأدغال إلى حين حضورك .

– ولكن حاول جاهداً أن لا تستجرّ البلاء إلى نفسك ، وإلا فلن تستطيع تربية الأرانب . ألقى علبته الفارغة بين الأدغال .

– لن ألقي بنفسي في المتاعب .. لن أفتح فمي بكلمة واحدة .

. – حسناً .. أحضر كيسك إلى هنا .. إلى مقربة من النار ، فسوف ننام هاهنا نوماً هادئاً عذباً تحت قبة السماء ، ومن حولنا أوراق الشجر .. لا تعبث بالنار .. دعها تخمد وتنطفئ .

بسطا عدة نومهما على الرمال ، وكانت المنطقة المحيطة بهما تزداد حلكاً كلما خبت النار وخمدت ، وكانت الأشجار والأدغال تختفي رويداً رويداً عن الأبصار، ولم يبق من الضوء سوى ذاك البصيص الذي ينبعث من الجمر المتخلف عن جذوع الشجر . قال لانيا في ذلك الظلام الدامس :

– هل أنت نائم يا جورج ؟ .

– لا ... ماذا تريد ؟ .

– يا جورج .. يجب أن تكون الأرانب ملونة .

قال جورج بصوت قد غلب النعاس صاحبه على أمره :

– نعم .. نعم .. ستكون حمراء .. سوداء .. وخضراء يا لانيا ، ستكون لدينا الآلاف المؤلفة من الأرانب .

– فلتكن لدينا الأرانب ذات الفرو الطويل .. أتذكر يا جورج أننا رأيناها في ضواحي (ساكرامنتو) .

– أجل .. ستوجد لدينا ذات الفرو الطويل .

– وإلا فسأرحل وأعيش في الكهف . فقال جورج :

– إلى الجحيم ... اصمت يا رجل .

كان البصيص الأحمر الآتي من الجمرات التي تتحول إلى رماد يذبل وينطفئ ، ومن فوق رابية على جنبات النهر يرنّ عواء بنات آوى ، وينتشر في الأفق الرحيب ... وفي الطرف الآخر نبح كلب وعوى مستهجناً لعواء بنات آوى ، بينما كانت نسائم الليل الواهنة تهدهد أوراق الأشجار ، فيُسمع لها حفيفٌ .

الفصل الثاني

كانت الدار التي يبيت فيها العمال بناءً مستطيلاً ، وكـانت الجـدران مطلية بالجير من الداخل ، أما السقف فكان مغطى بألواحٍ سميكة .

في ثلاثة أركان من الدار كنت تجد أقمشةً مربعة الشكل . وفي الزاوية الرابعة وُجد بابٌ ثقيل يغلق بقفل .

وبدلت ثماني أرائك أسندت إلى الجدران على نسقٍ وانتظام ، وكـانت اللحف قد بُسطت على خمس أرائك منها ، وعلى الأرائـك الثـلاث الأخـرى لحف دون ظِهار ، ومن فوق الأرائك علِّقت صناديق للتفاح بالجدران بواسطة أوتاد ومسامير ، وهذه الصناديق هي من ممتلكات أصحـاب اللحـف ، الـتي يحفظون فيها أمتعتهم الخاصة ، فكنت تجد فـوق الصنـاديق الـتي اتُّخـذت رفوفـاً أشـياء مختلفـة مثـل ، مكعبـات الصـابون وبعـض المسـاحيق (بـودرة) والشفرات وأعداداً من مجلة ***Wild West*** (الغـرب المتوحـش) الـتي يتعشـقها عمال المزرعة ويشغفون بها شغفاً جنونياً . كانوا في الظاهر يسـتهينون بـها ، وفي الحقيقة كانوا يولونها قدراً وافراً من الجدية والتوقير . كذلك وُجدت فوق هذه الرفوف أدوية وعقاقير وقوارير صغيرة وأمشاط ، وكـانت ربطـات العنـق المعلقة على المسامير المغروزة في الصناديق تتدلى وتترنح . وإزاء أحـد الجـدران نصبت مدفأة صُنعت من حديدٍ داكن ، وقد اخترقت أنابيبها سقف الدار من الوسط تماماً .

كانت المنضدة المربعة الشكل الموضوعة في منتصف المنزل قد فرشت بأوراق اللعب ، وحول المنضدة مقاعد خشبية لجلوس اللاعبين .

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً ، وقد أرسلت أشعة الشمس حزمةً من أشعتها التي خالطتها ذرات التراب الدقيقة فتعلّقت في فضاء الغرفة عابثةً لاهية ، وكانت أعداد من الذباب الهائم على وجهه تمرّ من بين تلك الحزمة فتبدو كنجومٍ متألقة ذاهبةً آيبةً خافقة .

كان قفل الباب الخشبي معطوباً . فُتح الباب على أحد مصراعيه ودخل رجلٌ هرم مقوّس الظهر ، فارع الطول ، يرتدي ملابس زرقاء وفي يده اليسرى مكنسة عريضة . ثم ظهر وراءه جورج ومن بعد ولج لانيا .

قال الرجل الهرم :

– كان المعلم ينتظر قدومكما مساء أمس ... وفي هذا الصباح احتدم غيظاً بسبب تخلفكما عن الحضور .

مدّ يده اليمنى وبدت يده الأخرى في كمّ ردائه كهراوة وأشار إلى فراشين بجانب المدفأة :

– يمكنكما أن تأويا إلى هذين الفراشين .

اقترب جورج وألقى بطانيته على غرائر التبن التي كانت تؤدي وظيفة الحشايا ، ونظر إلى رفّه المتّخذ من دون صندوق تفاح ، وتناول من داخله علبة صفيح صفراء ، وقال :

– وما هذه ؟ . قال العجوز :

– لست أدري .

– مدوّنٌ عليها أنها تبيد البراغيث وتقضي على جميع أنواع الصراصير والحشرات والهوام . أيُّ ضربٍ من الحشايا تقدمونه لنا ، ليس في نيتنا التعامل مع البراغيث .

نقل الخادم العجوز المكنسة إلى يده اليمنى ودسّها بين مرفقه وفخذيه ، وتناول العلبة وأمعن النظر في الكتابة المدونة عليها وقال :

– أعرني سمعك ... ذاك الزميل الذي نام هنا آخر مرة كان حداداً ، وكان إلى ذلك مفرطاً في النظافة إلى حدود الهوس ، لقد كان يغسل يديه حتى بعد تناول الطعام .

– فماذا جرى حتى تقمّل هذا الرجل ؟ .

رويداً رويداً ازداد حنق جورج وتفاقم ، ووضع لانيا أوزاره على السرير المجاور وجلس مشدوهاً فاغراً فاه يصغي إلى جورج . قال العجوز :

– انظر .. سأقول .. كانوا يطلقون على هذا الحداد اسم (*Whity*) .. كان يذرّ هذا المسحوق في كل الأمكنة وإن لم تكن موبوءة بالقمل والبراغيث ، وكان يقول : ليكن ما يكون .. هل تفهم ؟ أليس كذلك ؟ .. انظر سأنبئك أي صنفٍ من الرجال كان ذلك الحداد . كان يقشّر البطاطا فوق (سفرة) ولم يكن يدع منها شيئاً يسقط على الأرض ، وكان إذا وجد بقعة حمراء في البيضة أزالها ، وأخيراً حين لم يستمرئ الطعام عندنا غادرنا .:. هذا ما كان ، وهكذا كان الرجل ... كان شديد الأناقة ... يرتدي ثيابه

الأنيقة في أيام الآحاد وإن لم يخرج إلى مكان من الأمكنة حتى أنه كان يشدُّ ربطة العنق إلى رقبته . وأخيراً خرج من الغرفة . قال جورج مرتاباً :

– ترى لماذا غادر هذا المكان ؟ .

وضع العجوز العلبة الصفراء في جيبه وحكّ لحيته البيضاء – وكأنها حزمة من الشوك – وقال :

– ذهب إلى العمل ... هكذا خرج وذهب كما كان يفعل كل مرة .. لم يكن يبدي ملاحظات إلا عن الطعام . بيد أنه قال ذات ليلة :

– ادفعوا لي أجرتي .

رفع جورج فراشه ونظر تحته ، ثم انحنى عليه وأمعن فيه النظر ، فما كان من لانيا إلا أن نهض وحاكى جورج فيما فعل مدققاً متمحصاً ... أخيراً .. وأخيراً اطمأنت بلابل جورج وهدأت نفسه القلقة .

فتح حقيبته وأخرج منها (موس) للحلاقة وقطعة صابون ومشطاً وقارورة مليئة بالجوب ومرهماً ، ثم وضعها جميعاً على الرف ورصفها على نسقٍ واحد ، ثم فرش لحافه وجهزه . قال العجوز :

– أينما كان المعلم الآن ، فلا بدّ أن يأتي في هذا الوقت ... في هذا الصباح ، عندما لم يجدكما استشاط غضباً ، وذهب في الحال إلى المكان المعد لتناول فطورنا ... كان قد فقد عقله . فتح فمه وأغلق جفنيه وقال :

– في أيِّ جحيمٍ يمكثان حتى الآن ؟ . وقد تجاوز سخطه إلى السائس.

بسط جورج رقعه متجعدة من لحافه ، ثم جلس وقال :

– لقد ذكرت بأنه سخط على السائس ، فلماذا ؟ .

– أجل ... لأنه زنجي .

– أقلت إنه زنجي ؟ .

– أجل .. وفي الحقيقة هو رجلٌ فاضل ، أحدب ، في غابر أيامه كان قد رفسه حصانٌ (شَموس) ، والمعلم كلما تأزمت أموره أو وجد نفسه في معضلة صبَّ جام غضبه على السائس .. لكن السائس لا يأبه به ، وهو لا يكفُّ عن القراءة ، وفي غرفته كتب .

– أيُّ رجلٍ من الرجال معلمكم هذا !؟

– كلا .. إنه ليس امرءاً شريراً .. لكنه يخرج أحياناً عـن طـوره ومـع ذلك فهو رجلٌ شهم وكريم .. انظر .. ماذا كنت عازماً على قولـه .. أتـدري ماذا فعل في عيد (*Noel*) لقد أتى بكمية هائلة من (الويسكي) وقال : في العام برمته يأتي عيد (*Noel*) مرة واحدة فهيا اشربوا أيها الأولاد .

– لا تقل ذلك ... وهل أتاكم بكثير من (الويسكي) ؟ .

– كن على يقين ، فلست ممن يقولون غير الحقيقة .. يا إلهي .. كم كانت مسرتنا عظيمة ، وقد أذن في تلك الليلة للزنجي أيضاً .. يوجد حوذي صغير يدعى سميثي وقد تصارعا فغلبه الزنجـي وألصـق ظـهره بـالأرض، ولم يسمح له الرفاق أن يستخدم رجليه ، لذلك سقط عليه الزنجي ... ولـما كـان الزنجي أحدب فقد حظر الرفاق سميثي من الاستعانة برجليه . توقف قليـلاً وكأنه يستعيد ما غاب عن ذاكرته ثم تابع :

– وبعد ذلك خرج الجميع وذهبوا إلى (سوله داد) ابتغاء اللهو واجتراح الملذات ، ولكنني لم أرافقهم .. لأنني أمقت مثل هذه الرغائب والنزوات ولا أجنح إلى اصطناعها .

كان لانيا منهمكاً في إعداد فراشه وأوشك أن ينتهي من ذلك ، حين رفع المزلاج الخشبي وانفرج الباب عن فتى ربع القامة ، بدين ، قوي البنية، يرتدي سراويل زرقاء وقميصاً وصدارة ذات أزرار ومعطفاً قصيراً أسود ، وقد أدخل أنامله بين خصره وحزامه وعلى رأسه قبعة بنية اللون قديمة .. وفي قدميه نعال طويلة الساق ، مرتفعة الكعب مزخرفة بالخيوط ، بدا عليه أنه ليس من العمال المياومين .

رمقه العجوز ومسّد لحيته وجرجر رجليه نحو الباب وقال :

– ها قد حضر . ثم زاحم المعلم بمنكبيه لدى الباب وخرج .

تقدم المعلم ذو الفخذين المكتنزتين بخطواتٍ حثيثة ومتقاربة ، وقال:

– في هذا الصباح سجّلت حاجتي إلى عاملين في (***Ready & Muray***) هل معكما بطاقات العمل ؟ .

بحث جورج في جيوبه وأخرج البطاقتين وقدمهما إلى المعلم . فقال :

– ليس الذنب ذنب (***Ready & Muray***) .. فما هي ساعة الدوام مدونة على البطاقتين .

أطرق جورج برأسه وقال :

– لقد خدعنا سائق الحافلة ، فاضطررنا أن نمشي عشرة أميال سيراً على الأقدام ... فبينما كنا لا نزال بعيدين جداً قال لنا : هذه هي المزرعة ... وفي هذا الصباح أيضاً لم نعثر على سيارة تقلنا .

– اضطررت إلى إرسال عربة الشعير برفقة عمال ينقصهم عاملان ... ولا جدوى من إلحاقكما بالعربة الآن . تستطيعان ذلك في الدوام المسائي .

أخرج من جيبه دفتراً ، وفتح الصفحات التي دوّنت عليها جداول بأسماء العمال .

تعمّد جورج أن يحدّق في لانيا ويلقي عليه نظرة نفاذة ، فأومأ لانيا برأسه مبدياً عن تفهمه للمسألة . بلل المعلم قلمه بريقه وسأل :

– ما اسمك ؟

– جورج ميلتون .

– ومرافقك ؟ . فأجاب جورج :

– يدعى لانيا سمول . سجّل المعلم اسميهما في دفتره وتساءل :

– ما هذا اليوم ؟ آه ... إنه العشرون من الشهر . ثمّ طوى دفتر سجلاته .

– أين كنتما تعملان قبل الآن ؟ . قال جورج :

– في الشمال ، في وَيْد . التفت المعلم إلى لانيا ، وقال :

– وأنت أيضاً ؟ . فأجاب جورج :

– أجل ... هو أيضاً .

أشار المعلم إلى لانيا إشارةً تنطوي على الدعابة ، وقال :

- يبدو وكأنه رجل غير مهذار .

- أجل .. ليس ثرثاراً .. وما من أحد يضاهيه في أداء العمل .. إنه قوي كالثور . فابتسم لانيا وردد بصوتٍ خافت :

- إنه قوي كالثور .

رمقه جورج وتمعّن فيه فأطرق برأسه خجلاً . فسأله المعلم في هجمةٍ واحدة :

- أنت يا سمول ماذا تجيد من الأعمال ؟ .

فاضطرب لانيا واهتاج ، واستنجد بجورج بإيماءةٍ من عينيه لينقذ الموقف . فقال جورج :

- إنه يؤدي كل عمل تسنده إليه .. إنه يستطيع تسريح البغال في المراعي .. يستطيع نقل أكياس الزاد .. يستطيع أن يحرث .. إنه يستطيع أداء كل عمل تشاء . اختبره مرة وسوف ترى .

عاد المعلم إلى جورج وقال :

- لماذا لا تدعه يتكلم ؟ .. ماذا تقصد ؟ .. دعنا نفهم .

قال جورج بصوتٍ جهوري :

- لم أقل بأنه نابه أو ذكي .. كلا .. إنه ليس كذلك ، ولكنه في العمل لا يُبارى ، وليس له منافس .. إنه يحمل مائتي كيلو غراماً ولا يبالي .

دسَّ المعلم الدفتر في جيبه وغرز الإبهامين بين خصره وحزامه ، وغمز بإحدى عينيه ، وقال :

– انظر إليّ ... أية لعبة تقوم بها ؟ .

– آه ... ماذا ؟ .

– كم تربح من وراء ظهر هذا الغلام ؟ هل تقبض عمولته ؟ .

– بأية مناسبة ؟ أتظنني أستغله ؟ .

– لم أجد طيلة حياتي من يتمسك بآخر بهذا القدر ؟ وماذا تجني من وراء هذا السلوك ؟ ليتني أعرف ذلك ا.

– إنه أحد أقربائي ، وقد وعدت والدته أن أرعاه وأهتم بشؤونه .. حينما كان صبياً رفسه بغل في جمجمته فتأثر بذلك .. إنه معتوه قليلاً ، وهذا كل ما في الأمر .. ولكنه رجل ككل الرجال ، ويستطيع أداء أي عمل تكلفه به . فردَّ المعلم :

– إن عمل غرائر القوت لا يفتقر إلى كثير من الفطنة . ولكن حذار يا ميلتون ... حذار .. إياك أن تخدعني يا ميلتون ، وسوف أتعقبك .. ولماذا انفصلتم عن العمل في ويدي ؟ .

– لم يعد ثمة عمل .

– أيّ عملٍ كنتما تزاولان ؟ .

– كنا نحفر الأنفاق .

- حسناً ، ولكن لا تحاول أن تغرر بي . وإن حاولت فلن تستطيع إلى ذلك سبيلاً .. لقد سبرت كثيرين من أمثالك المتحذلقين . بعد تناول الطعام ستذهبان لنقل أكياس الشعير ، وستنقل الأكياس من مستودع الشعير .. ستخرج مع ورشة سِليم .

- سِليم !؟ .

- إنه حوذي عريض المنكبين ، وسوف تراه في موعد الطعام .

استدار المعلم بكليته وتوجه نحو الباب ، ولكنه قبل أن يلفظه الباب تقهقر إلى الوراء ، وأنعم النظر في الرجلين الوافدين .. وعندما غادر ، وانقطع صوت خطواته نظر جورج إلى لانيا :

- لقد وعدتني أن لا تتفوه بكلمة ، وكان عليك أن تغلق فمك وتكل إليّ الحديث . لقد أوشكنا أن نخسر عملنا . نظر إليه لانيا مكتئباً وقال :

- لقد أدركت ذلك يا جورج .

- أجل .. لقد أدركتَ .. ولكنك دائم النسيان .. ثم تلقي على كاهلي كل الأعباء . قال ذلك واندسَّ في فراشه .

- سيظل الرجل يراقبنا ، فحاول أن لا ترتكب خطيئةً أخرى ، ويجب أن لا تنبس ببنت شفة . ثمّ استسلم لتفكيرٍ عميق .

- جورج ! .

- ماذا دهاك مرة أخرى ؟ .

– إن البغل الشموس لم يرفس جمجمتي ... أليس كذلك يا جورج ؟ .

حنق جورج وقال :

– ليته رفسك .. وإذ ذاك كان الناس سيهتمون بك ويصغون إليك .

– هل قلت بأن بيننا نسباً ؟ .

– لقد كذبت .. وماذا في ذلك ؟ إني سعيدٌ بهذه الكذبة .. لو كنتَ من أقاربي لعلّقت مشنقتي وانتحرت . صمت جورج ، وسار نحو الباب ونظر إلى الخارج :

– أنت أيها الرجل .. ما بالك واقفاً هناك ، وإلامَ تصغي ؟ .

دخل العجوز الغرفة بخطواتٍ ثقيلة ، وكانت المكنسة ما تزال في يده، يتبعه كلب من كلاب الرعاة وقد كفّ بصره ، إذ كان هرماً جداً ، وبعد لأي استطاع الوصول إلى ركن من أركان الغرفة وهو يظلع في سيره ، ثم ربض على الأرض لاهثاً منهكاً . ثمّ بدأ يلعق وبره المتلبد وجلده الأجرب ، ووقف العجوز ينتظر أن يستتب للحيوان المكان . وقال :

– ما أصغيت .. كنت أويت إلى ذاك الركن أحكُّ كلبي .. وقد انتهيت الآن من تنظيف المرحاض . فقال جورج :

– بل كنت تصغي إلى الأحاديث التي كانت تجري هنا .. إني لا أحب أولئك الذين يدسّون أنوفهم في شؤوني الخاصة .

ألقى العجوز نظرة أسى على جورج وقال :

– لم أحضر إلا الآن ، ولم أسمع كلمة واحدة من حديثكما . وليست بي رغبة في ذلك .. إن الوقوف أمام بوابة المزرعة وإلقاء الأسئلة أمرٌ غير مستهجن .

وبعد أن هدأ جورج قليلاً ، قال :

– لقد نطقت بالصواب .. إن الحريص على عمله يجب أن يكون هكذا.

سُرَّ جورج بكلمات العجوز فقال :

– تعال واجلس بعض الوقت .. هذا كلبك طاعن جداً في السن .

– إنه لكذلك .. لقد ربيته جرواً .. كان كلباً رائعاً من كلاب الرعي.

أسند العجوز مكنسته إلى الحائط ومسّد لحيته الكثّة .

– كيف هو معلمنا ؟ .

– لا بأس به ، يبدو رجلاً فاضلاً .

– إنه دمث الأخلاق مادامت الأمور تسير حسب هواه .

ولج الغرفة فتى أسود العينين ، له شعرٌ متجعّد ، أسمر البشرة ، في يده اليسرى قفاز عمل ، ينتعل حذاءً ذا كعبٍ عالٍ على غرار المعلم .

تساءل الفتى :

– ألم تجدوا والدي ؟ . قال العجوز :

– كان هنا قبل برهة يا جارلي ... وذهب بعد ذلك إلى المطبخ .

قال جارلي :

– سأرى إن كان هناك .

ولما التقت عيناه بالوافدين الجديدين أحجم عن الذهاب ... في الوهلة الأولى نظر إلى جورج ثمّ إلى لانيا ... ورويداً رويداً أرخى ذراعيه وشدّ قبضته ووتّر جسمه وانحنى بهدوء إلى الأمام . كانت نظراته تنمُّ عن العداء والتأمل ، وإذ أدرك لانيا ذلك تحرّك بذهول وحرّك رجليه في ضيقٍ وتبرّم ، وفي أناة دنا منه جارلي :

– هل أنتما العاملان الجديدان ، وقد كان والدي ينتظركما ؟ . فقال جورج:

– الآن حضرنا .

– دع شجرة السرو هذه لتتكلم .

كان لانيا مضطرباً لا يقرّ له قرار ، وقد استحوذت عليه الدهشة ، فقال جورج مرةً أخرى :

– وماذا لو أنه لا يرغب في الإجابة ؟ . التفت إليه جارلي مهتاجاً :

– عندما يُلقى سؤال فلا بدّ من جواب ... وأنت لماذا تحشر نفسك في الحديث ؟ . فنظر إليه جورج دون أن يعبأ به ، وقال :

– إننا رفيقان متلازمان .

– إذن فهذا هو السبب ! .

– أجل .. خذا هو السبب ، وأيُّ ضيرٍ في ذلك ؟ .

حار لانيا ، واختلط عليه الأمر ولم يفقه شيئاً من مقتضى الحال ، ولم يدر كيف يتصرف ، فنظر إلى جورج .

– إذن فأنت لا تسمح له بالتكلم . أليس كذلك ؟ .

– لو كان راغباً لتكلم . ثم أومأ إلى لانيا إيمـاءة خفيفـة ، فقـال لانيـا بصوتٍ كالهمس :

– الآن جئنا .

حدّق فيه جارلي ، وقال :

– إن سُئِلت مرة أخرى عن شيء فبادر إلى الجواب . هل فهمت ؟ .

نظر إليه جورج من وراء ظهره ، ثمّ ألقى نظرة على العجوز :

– ماذا يبتغي هذا ؟ إن لانيا لم يسئ إليه .

ولكي يطمئن العجوز بأن أحداً لا يصغي إليهما فقد مـدَّ نظـره باتجـاه الباب وقال بصوتٍ خفيض :

– أعرني سمعك .. إن جارلي غلامٌ مشاكس وعنيف . إنه نجـل المعلـم وهو ملمٌّ برياضة الملاكمة .. وهو ملاكـم خفيـف الحركـة ، متمكـن مـن هـذه الرياضة .

– ليكن ملاكماً ، ولكن لماذا يحاول إقحام لانيا في البلوى دون مبرر؟.

– انظر .. ماذا سأقول .. إن جارلي قميء الجسم ، ولا يميل إلى أولئك الأفراد ذوي القامات المديدة والأكتاف العريضة ، وهو دائـم التعـرّض لهـم ،

ومادام قصير القامة فهو يمقتهم . ألم تصادف أمثال هؤلاء ؟ إنهم دائماً يثيرون الفتن .

– بلى .. لقد صادفت أشباه هؤلاء الكلاب المسعورة كثيراً ، ولكن جارلي سيحسن صنعاً إن هو ترك لانيا وشأنه . لانيا ليس حاذقاً ، ولكنه إذا خولط في عقله فلن يسلم جارلي من بطشه . قال العجوز مرتاباً :

– لست أدري .. ولكن جارلي فتى وافر النشاط .. خفيف الحركة ، ولست أستصوب مثل تلك المنازلة ، فلو أنّ جارلي ألقى بنفسه على رجلٍ ضخم وقهره لقال مَنْ حوله : إن جارلي فتى صنديد وهمام ، ولئن صرعه أحد هؤلاء الضخام الأجسام وانهال عليه ضرباً لهبَّ الجميع لنجدته وانتصروا له ... إن هذا الأمر جائر . وفي كل الأحوال يكون جارلي عند المخاصمة على حق وغيره على باطل . ألقى جورج نظرة تهديد ووعيد إلى ناحية الباب ، وقال :

– من الخير له أن يدع لانيا وشأنه .. إن لانيا ليس ملاكماً ، ولكنه ذو بأسٍ شديد ، ويده سريعة الحركة وهو يجهل أسلوب اللين والملاطفة .

اتجه جورج إلى المنصة المربعة الشكل ، وجلس على صندوق ومتناول رزمة من أوراق اللعب وبدأ بخلطها ، وجلس العجوز على صندوقٍ آخر وقال:

– لا تنقل ما أفضي إليك من حديث إلى جارلي ، فإذا علم بشيء من هذا القبيل طردني من هذا المكان .. إنه ابن المعلم ، وما من امرئٍ يستطيع طرده أو التأثير فيه .. إنه غير آبه بما قد يحدث .

خلط جورج أوراقه ووضع قسماً فوق آخر ، وجعل ينظر إلى الأوراق ورقة تلو ورقة .. كان ينظر إليها ثم يطرحها على المنصة . قال العجوز :

– لقد أمسى في هذه الأيام أكثر ضراوةً وشراسة .. تزوج منذ أسبوعين .. تقيم زوجته في دار المعلم .. لقد أصيب بالسعار بعد هذا الزواج .

همهم جورج :

– ليثير إعجاب زوجته . وعقّب العجوز قائلاً :

– ألم تلحظ القفاز في يده اليسرى ؟ .

– إنه مليء بمرهم (الفازلين) .

– (الفازلين) ؟ ولِمَ ذلك ؟ .

– انظر .. واسمع ما سأقوله لك .. يقول جارلي : إنني أريد الحفاظ على هذه اليد غضة ناعمة من أجل زوجتي . تطلّع جورج إلى الأوراق . وتفحّصها بدقة :

– أليس من العار أن ينطق بمثل هذا الكلام البذيء ؟ .

اطمأنت نفس العجوز ، وكان يتمنى أن يشاهد جورج ذاك الـ جارلي .. فهو يعلم بأنه يطأ أرضاً طلبة ، فقال بمزيد من الثقة :

– ليتك ترى زوجة جارلي ؟. عاد جورج مرة أخرى إلى خلط الأوراق وتقليبها ، ثمّ قسّمها ووزعها هنا وهناك ، وقال متسائلاً :

– وهل هي جميلة ؟ .

– أجل .. إنها رائعة الجمال . ولكن ...

قال جورج وبصره معلّق بالأوراق :

– إنها متقدة كجمرةٍ متأججة .

– أحقاً ؟ تزوجت منذ خمسة عشر يوماً ومازالت تلتهب ؟ .

– لا ريب أنها سبب عجرفة جارلي .

– لقد شاهدتها وهي تغازل سليم وتغمزه بعينها ... سليم ذاك الزميل الذي يسرّح البغال في المراعي .. وفي الحقيقة إنه فتى همام ، ولما كان سليم مهتماً بأمور الزراعة فهو لا يفتقر إلى نعال ذات كعبٍ عالٍ .. لقد رأيت زوجته تطرف بعينها وتومئ إلى سليم . لكن جارلي غير مدرك لذلك . ثمّ عرفت فيما بعد أنها تميل إلى كارلسون أيضاً . كان يخيل الى المرء أن جورج لا يسمع شيئاً . قال :

– واضح أن ذاك السافل لن يبرح هذا المكان . نهض العجوز عن الكرسي – الصندوق ، وقال :

– هل تفهم ما أقول لك ؟ . لم يجب جورج .

– أقول : إن هذه المرأة التي تزوجها جارلي امرأة ساقطة مومس .

– هذا ليس بالأمر العجيب .. كثيرون هم من ألّمت بهم مثل هذه المصيبة . توجّه العجوز نحو الباب ، فرفع كلبه الهرم رأسه ونظر فيما حوله، ولكي يتبع صاحبه نهض عن مجثمه بعد لأي .

– سأذهب لتحضير عدة ماء الحمام ... فهل تذهبان لنقل الشعير ؟ .

– أجل .

– ما أفضي إليكم يجب أن يبقى سراً ، لا يعلم به جارلي ، أليس كذلك ؟ .

– بأية مناسبة ؟ .

– يكفي أن تراها مرة واحدة ، وستعلم أي نمطٍ من النساء هي .

وأخيراً خرج إلى العراء تحت أشعة الشمس الحارقة . رتّب جورج الأوراق في أرتالٍ منسّقة .. جعلها ثلاث مجموعات .. وضع أوراق (السينك) الرباعية فوق الورقات المفردة .

كانت الشمس قد نفذت من خلال كوة مربعة الشكل إلى داخل الغرفة ووقعت على الأرض ، وكان الذباب الطائر في تلك الحزمة الضوئية تبدو كشرارات نارية ، وكان ينبعث من الخارج صليل أعنة الجياد وركابها وصرير عجلات المركبات التي تئنّ تحت أعباء ثقيلة . ومن بعيد وصل إلى الأسماع هتاف:

– يا سائس .. أيها السائس . ثم :

– اللعنة على هذا الزنجي ... إلى أيّ جحيم قد ذهب ؟ .

نظر جورج إلى الأوراق المشرعة أمامه ، ثمّ خلطها والتفت إلى لانيا ، فبادله لانيا النظر وهو راقد :

– انتبه يا لانيا .. إن أمورنا لن تستقيم .. وإنني وجل ، متوجس ، إني أعرف هذه الشاكلة من الناس ، لقد أراد ذاك الفتى أن يسبر أغوارك

ويضعك على المحكّ ، وقد خيّل إليه أنه قد أرعبك ومتى سنحت له أول فرصة انقضّ عليك ، ولكمك على وجهك .

كان الرعب قد انسلّ إلى عيني لانيا فجأر :

– لا أريد أن أتعرّض للمحن ... فاعرف ذلك يا جورج ، واحذر أن يضربني . نهض جورج وذهب ، وجلس فوق سرير لانيا وقال :

– إنني أمقت أمثال هؤلاء الغادرين الرعاديد ... لقد شاهدت كثيرين من أولئك الأشخاص ... لقد أكّد العجوز أن جارلي هو دائماً المنتصر ، ولا يجب التخوف منه ، ولكنه هو دائماً المنتصر . توقف هنيهةً ، وفكّر قليلاً :

– لو أنه تعرّض لك بسوء فلا بدّ أن نُطرد من هنا .. إنه ابن المعلم .. فافتح عينيك جيداً يا لانيا .. إنه ابن المعلم .. أعرني بالك يا لانيا ولا تقترب منه ، ناشدتك الله أن لا تدنو منه .. ولا تكلمه قط .. إذا أقبل إلى هذه الناحية فاذهب أنت إلى الجهة الأخرى ... إلى ركنٍ آخر من الغرفة .. احفظ كلماتي .. أليس كذلك يا لانيا ؟ .

تحدث لانيا يناجي نفسه :

– لا أريد أن ألقي نفسي في المهالك . ولكن ماذا فعلت حتى ينقم عليّ؟ .

– إن حاول جارلي أن ينهال عليك باللكمات سواء فعلت شيئاً أو لم تفعل شيئاً .. لا بأس .. تجنّبه .. سوف ترسخ هذا في فكرك أليس كذلك ؟ .

ازداد صخب المركبات المحملة بالشعير ، وازدادت ضجة وقع السنابك الثقيلة على الأرض الصلبة ، وكذا صرير المكابح والسلاسل واللجم ... وكانت كل تلك الجلبة تُسمع بجلاء . كان الرجال يتهافتون من فوق العربات في الوقت الذي جلس جورج على سرير لانيا مستغرقاً في تفكيرٍ عميق. سأله لانيا مرتبكاً :

– إنك لم تغضب يا جورج أليس كذلك ؟ .

– لست أحنق عليك ، ولكنني ناقم على ذلك الغادر الحقير جارلي .. كنت آمل أن نجمع معاً بعض المال .. أن نتضافر في تحصيل مبلغ مائة دولار في أهون الأحوال . ثمّ أردف باقتضاب :

– إياك أن تدنو منه يا لانيا .

– كلا يا جورج لن أدنو منه ، ولن أعاشره ولن أفتح فمي بكلمة .

– لا تدع له فرصة ليتعرّض لك .. ولئن أقدم على ضربك ابن العاهرة لقنته درساً .

– أي درسٍ سألقنه يا جورج ؟ .

– لا شيء .. لا شيء .. ومتى حضر أخبرتك .. إنني لا أستطيع صبراً ، ولا يقرّ لي قرار إزاء أولئك الأصناف من الأشخاص .. أصغِ إليّ يا لانيا. إن حلّ بك بلاء فماذا ستفعل ؟ هل تذكر ذلك ؟ .

اتكأ لانيا على مرفقه ووجهه ينضح بالفكر والاهتمام وأدام النظر إلى ناحية جورج وقال :

- إذا ألّمت بي نائبةً فإنك لن تسمح لي برعاية الأرانب .

- ما قصدت ذلك .. ألا تذكر أين بتنا ليلة البارحة ؟ أتذكر ذلك ؟ على ضفاف ذلك النهر ؟ .

- أجل إنني أذكر .. طبعاً .. إنني أتذكر ، سأذهب إلى هناك وأختبئ بين الأدغال .

- ستمكث هناك مختبئاً إلى حين مجيئي للقائك .. لا تدع أحداً يراك .. اختبئ بين الأدغال على حافة النهر .

- فيما لو طرأ لك طارئ ؟ .

- فيما لو طرأ لي طارئ .

دوّى صوت كابح عربة في الخارج ، وصرخ أحدهم :

- السائس .. أيها السائس . قال جورج :

- ولكي لا تنسى ذلك ، فكرر بينك وبين نفسك .

بعدما زالت تلك الحزمة الضوئية عن الأرض ، وحلّ محلّها الظل اشرأب الاثنان برأسيهما إذ ظهرت لدى الباب امرأة يافعة متبرجة ذات شفتين مكتنزتين مطليتين بأحمر الشفاه ، بعيدة ما بين المحجرين وقد أمعنت في طلائهما ، وأظافر مصبوغة باللون الأحمر ، ترتدي ملابس مبتذلة من القطن ، وفي قدمها خفّ مزخرف بريش النعام ، وكانت خصلات شعرها المتفرقة تترنح حول رأسها ... أدار جورج وجهه قليلاً ، وغضّ عنها الطرف، ثم عاد إلى النظر . قالت المرأة :

- هل حضر إلى هنا ؟ .

- كان هنا قبل لحظة .

- آه ...

ولكي تكشف المرأة عن مساحة إضافية من نحرها ألقت بيديها خلف ظهرها واستندت إلى الباب :

- أأنتما القادمان الجديدان ؟ .

- أجل .

رنا لانيا إلى المرأة ودقق فيها النظر وتفحصها ، وبدا على المرأة أنها لا تعبأ به ... كانت تتحرك وتميد بخفة .

نظرت إلى أظافرها ، وقالت بصوت ينطوي على مغزى خفيّ :

- كان جارلي يتردد أحياناً هاهنا . قال جورج في امتعاض :

- ماذا أفعل ؟ إنه ليس هنا .

نظرت إليه المرأة نظرةً جريئة ، وقالت دون لامبالاة :

- إذن .. سأذهب للبحث عنه .

بدا لانيا وكأن فمه قد ألجم ، وربط لسانه . قال جورج :

- متى رأيته أخبرته بأنك تبحثين عنه .

ابتسمت المرأة في خبث وهزّت ردفيها ، وقالت :

- البحث عن شخص ليس عاراً .

سُمع صوت سليم من جهة الباب :

– طاب يومك أيتها الفتاة الحبيبة .

– إني أبحث عن جارلي يا سِليم .

– من الواضح أنك لا تبحثين عنه قط ، فقد ألفيته متجهاً إلى البيت .

أجفلت المرأة دفعةً واحدة ، واتجهت إلى الغرفة ، وقالت بصوتٍ جهوري :

– وداعاً أيها الأولاد . ثم ابتعدت لا تلوي على شيء .

رمقها جورج ، وقال :

– أية عاهرة هذه المرأة ؟ ... لم يجد جارلي امرأة يتزوجها ... بحث طويلاً فلم يعثر إلا على هذه المرأة . قال لانيا مبرراً يعذر جارلي :

– إن المرأة فاتنة .

– إنها فاتنة لا ريب في ذلك .. ذلك غير خافٍ .. سوف يعاني جارلي الكثير من الرزايا بسببها .. قسماً بشرفي إن المرء يستطيع امتلاك هذه المرأة بعشرين دولاراً .

كان لانيا لا يزال يحدّق في الباب الذي خرجت منه المرأة ، وقال :

– لقد كان شيئاً ممتعاً ! . كان يبتسم ، ذاهلاً . رمقه جورج ، وأمسك بإحدى أذنيه وفركها ، وقال موبخاً :

– أصغِ إلي أيتها الدابة ... إن النظر إلى هذه المرأة الفاجرة أمرٌ منكر ومشين ... فلتقل ما تشاء ، ولتفعل ما تشاء ، ذلك لا يهمني .. لقد رأيت أفاعٍ كثيرة من هذا النوع .. مثيلات هذه المرأة ذكيات . يعرفن اقتناص الرجال والزجّ بهم في المآزق ، فلا تهتم بها .

– أنا لم أفعل شيئاً يا جورج .

– أجل .. إنك لم تفعل شيئاً ، لكنك لم تحد ببصرك عن ساقيها حينما كانت تعرضهما .

– لم يخطر لي على بالٍ أمر مريب ، أو ما قد ألام عليه ، ولم أسئ النية يا جورج ... أقسم على ذلك .

– لا بأس .. ولكن حذار من الاقتراب من تلك المرأة ، هل فهمت أم لم تفهم ؟ وإلا فستسقط في أحبولتها . دع جارلي يسقط فيها ، كان عليه أن لا يتزوج هذه المرأة الداعرة . ثمّ تابع في كراهيةٍ واستياء :

– قفاز الفازلين .. لا شك أنه يزدرد كل يوم البيض النيئ ، ويبتاع من الصيدليات عقاقير منشطة وأدوية مقوية . فصرخ لانيا :

– ما أحببت هذا المكان ، وما راقني قط يا جورج ... هذا مكانٌ موبوء ... كم أتمنى أن أغادر هذا المكان .

– لا بدّ من المكوث هنا حتى نجمع بعض المال .. وليس أمامنا حيلة أخرى يا لانيا ... ومتى هبّت رياحنا رحلنا غير آسفين . أنا لست مغرماً بهذا المكان الفاسد القذر . قال ذلك ، وعاد إلى المنصة وانهمك في العبث بالأوراق :

– ما سررت بهذا المكان قط ... إن إبليس يحثني على الرحيل حالاً ، ويقول لي : اتّخذ لنفسك نهجاً آخر ، وامضِ . ومتى حصلنا على مال يكفينا

للسفر إلى (أمريكا ريفر) لهاجرنا .. سنذهب إلى هناك لغسل التبر ، وهناك نستطيع كسب بضعة دولارات ، من يدري ؟ قد نعثر على عروق الذهب .

انحنى عليه لانيا مغتمّاً كئيباً :

- فلنرحل يا جورج .. فلنذهب من هذا المكان . إنه مكانٌ وضيع .

بعد أن انتهى من ترجيل شعره، ولج إلى الغرفة بخطى وئيدة وسار بخيلاء وكأنه ذو شأنٍ خطير. كان سائق عربة، ولكنه كان كملك في المزرعة، يستطيع أن يقود ستة عشر بغلاً بعنانٍ واحد، وإن ذبابة حطّت على فخذ بغل لاستطاع قتل تلك الذبابة بسوطه دون أن يمسّ جسد البغلة . كانت حركاته متّزنة هادئة ، وكان إذا تكلّم أصغى الحاضرون إلى خطابه الشيّق، وكان شديد الثقة بنفسه، وكان حديثه عذباً طلياً يلامس شغاف قلوب المستمعين سواء كان هذا الحديث في موضوع سياسي أو بصدد العشق والهوى.

كان سليم هذا حوذياً من هذا النمط الذي أسلفنا الحديث عنه . كان الناظر إلى وجهه المتطاول الضيّق يخفق في تقدير عمره ويخطئ في ذلك .. كان مظهره يوحي بأنه في الثلاثين من العمر ، وقد يوحي بأنه في الخمسين .. كانت أذناه تسمعان أكثر مما يُقال .. كان بطيء التكلم ، ولم تكن الأحاديث التي يدلي بها من بنات خياله ، ولكنها كانت أغرب من الخيال نفسه ، وكانت يداه النحيلتان الضخمتان شبيهتين بأيدي الراقصين تتحركان حركات دائرية . أعاد قبعته المتجعدة إلى رأسه بعد أن سواها ، وقال برقّة :

– لقد كانت الشمس حارقة ، حتى أنني كنت أعجز عن فتح عيني .. أنا الآن لا أستطيع رؤية ما في الداخل بوضوح ... هل أنتما الوافدان الجديدان ؟ . قال جورج :

– الآن وصلنا .

– هل تستطيعان نقل أكياس الشعير ؟ .

– هذا ما قرره المعلم .

جلس سليم في الطرف المقابل لجورج فوق الصندوق الخشبي إلى جانب المنصة وأعار اهتمامه للأوراق المرصوفة أمامه ، وقال بصوتٍ شديد الطلاوة :

– ليتكما تخرجان معي للعمل ... في معيتي عاملان ، بدينان ، بليدان ، لا يميزان بين أكياس القمح والشعير ، فهل زاولتما نقل الشعير ؟ .

قال جورج :

– أجل .. لقد مارسنا هذا العمل .. لست ضليعاً جداً ، لكن هذا المارد

– كن على يقين – يحمل أوزاراً يعجز عنها الآخرون .

كان لانيا يصيخ السمع وينصب أذنيه للإصغاء إليهما ، فلما سمع ذلك الإطراء ابتسم بسعادة . نظر سليم بعين الاعتبار إلى ملاحظة جورج ورآها صائبة ثم انحنى على المنصة وتناول بعض أوراق اللعب وفرّقها :

– هل أنتما رفيقان ؟. قال جورج :

– أجل إننا شخصان يتمم أحدنا الآخر . ثمّ أشار بسبابته إلى لانيا وأردف :

– لكنه ليس نابهاً جداً ... وفي العمل لا يُشقّ له غبار ، إنه فتى ذو شهامة ولكنه ليس ذكياً كما ينبغي .. إنني أعرفه منذ عهدٍ سحيق .

حدّق سليم في جورج متأملاً ، وقال :

– إن المرء قد لا يجد صديقين متلازمين ، ولست أدري لماذا ؟ لعلّ السبب يعود إلى أن الناس في هذا العالم الشرير يرهبون بعضهم بعضاً .

قال جورج :

– من الأفضل أن يرافق المرء شخصاً له به معرفة وطيدة .

دخل فتى قوي العضلات ، عريض المنكبين الغرفة ، وبدا عليه أنه خارج من الحمام ، إذ كان الماء يقطر من شعره ، وهتف :

– يا سليم .. ثم سكت . أجال الطرف في جورج ولانيا ، فأجاب سليم بصوتٍ معرّف :

– الآن قد حضرا . قال الرجل الضخم :

– أهلاً بكما .. إني أدعى كارلسون .

– اسمي جورج ميلتون ، وهذا يدعى لانيا سمول ، فقال كارلسون :

– سمول(*)إنه لا يشبه الصغار قط . ولدى هذه الدعابة انفجر ضاحكاً:

– يا سليم .. ماذا كنت أروم قوله .. أين هي كلبتك ؟ إننا لم نجدها هذا الصباح تحت العربة . قال سليم :

(*) – سمول : وتعني بالإنكليزية (الصغير) .

– لقد ولدت مساء البارحة ، ووضعت تسعة جراء ، ولكنني أغرقت أربعة منها في الماء ، لأنها لا تستطيع تغذية كل تلك الجراء .

– إذن ما تزال هناك خمسة جراء أخرى ؟ .

– أجل .. توجد خمسة جراء أخرى .. وقد فصلت عنها جرواً أكثرها ضخامةً .

– ترى من أية فصيلة تلك الجراء ؟ . قال سليم :

– لست أدري .. ومهما كانت فصيلتها فستؤول إلى كلاب للرعي ، إذ ليست هنا أنماط سواها . تابع كارلسون :

– أنت تعلم يا سليم .. لقد خطر لي خاطر ، إن كلب جاندي الذي هرم إلى حدٍ كبير ولا يستطيع المشي وتفوح منه رائحة كريهة نفاذة ، وكلما دخل الغرفة علقت بها رائحته الكريهة ثلاثة أيام .. فلماذا لا تقترح على جاندي أن يتخلص من كلبه العاجز ويربي أحد جرائك ؟ . حين يقترب مني ذلك يصيبني بالدوار .. لقد أدرد وكفّ بصره ، ولا يهضم طعاماً .. ولا يستطيع مضغ أي شيء آخر . يقتصر طعامه على الحليب الذي يقدمه له جاندي .

لم يكن جورج يقطع نظره عن سليم ، وبغتةً قرع جرس ... بدأ الرنين هادئاً متأنياً ، ثم تسارعت دقاته حتى أضحى صوتاً ذا وتيرة واحدة . قال كارلسون :

– عن الجرس يُقرع . ثم سُمعت أصوات أولئك الذين يمرون بالقرب من الباب ، وبهدوء نهض سليم وقال :

– هيا أيها الأولاد .. اهرعوا إلى الطعام قبل أن ينفد . بعد دقيقتين لن يبقى منه شيء . أفسح كارلسون الطريق لـ سِليم ثم خرج الاثنان وغابا .

لانيا الذي واظب على النظر إلى جورج بدا شديد الاضطراب ، أما جورج فقد انكبَّ على الورق يفرقه .

– لا تشغل بالك .. لقد سمعت ما قلته يا لانيا .. سأطلب منهم جرواً. صرخ لانيا الذي طار لبه فرحاً ، وفقد السيطرة على مشاعره :

– ليته يكون أبيض بنياً .

– هيا نذهب للطعام . لست أدري إن كان هناك جرو بين الأبيض والبني . لم يتزعزع لانيا عن فراشه .

– اطلب إليه الآن يا جورج .. أن لا يقتل الجراء الأخرى .

– حسناً .. هلم .. هيا انهض .

نهض لانيا عن فراشه وكأنه يتدحرج ، وسارا معاً باتجاه الباب ، وإذ بلغا الباب دخل جارلي الغرفة كالصاعقة ، وسألهما غاضباً :

– ألم تشاهدا هاهنا امرأة ؟ . قال جورج بفتور :

– منذ نصف ساعة قبل الآن شاهدت امرأة .

– وماذا كانت تفعل هنا ؟ . نظر جورج بكل هدوء وسكينة إلى الرجل المغتاظ وقال بلهجةٍ مستفزّة :

- زعمت أنها تبحث عنك .

كان يخيل للناظر إلى جارلي أنه يرى جورج أول مرة ، إذ كان يرمق جورج وقد احمرّت حدقتاه ... كان يقيس في ذهنه طوله وعرضه ، يزنه .. وبعدما أمعن النظر في هيكله المتراص وبنيته القوية ، سأل :

- إلى أية جهة ذهبت ؟ .

- أيان لي أن أعرف إلى أية جهة ذهبت ؟ لقد رأيتها وهي مدبرة .

رشقه جارلي بنظرةٍ عدائية ، ثم استدار وخرج . قال جورج مخاطباً لانيا :

- هل تعلم يا لانيا بأنني أخشى - في يومٍ من الأيام - أن ألحق كارثة بهذا النزق الأرعن .. أيّ يوم بؤس ينتظره . ناشدتك الله أن نخرج وإلا فتحنا أفواهنا للهواء وطوينا أحشاءنا على الجوع .

خرجا من الغرفة ، ولم يبق من شعاع الشمس إلا بمقدار خيط .

ارتفعت أصوات قرقعة القدور والصحون ... وبعد فترةٍ وجيزة دخل الكلب الأعرج الغرفة من الباب المفتوح ، وأجال نظراته الضبابية هنا وهناك واستاف بخيشومه أرجاء الغرفة وأهوى برأسه على قائمتيه الأماميتين .

مرةً أخرى ظهر جارلي أمام الباب وحدّق في الغرفة ، فرع الكلب رأسه .. ولكنه ما أن غادر جارلي وضع رأسه الأجرب على براثنه الأمامية من جديد .

الفصل الثالث

كانت الغرفة معتمة على الرغم من سطوع أضواء المساء على النوافذ ، ومن خلال الباب الموارب كانت أصوات السنابك وصليل الحديد تبلغ الأسماع ثم يعقبها الصدى .

دخل سليم وجورج الغرفة المعتمة . مدّ سليم يده من فوق المنصة المعدة للعب الورق ، وتناول قنديلاً مغطى بصفيح معدني وأوقده .. انتشر النور وأضاء المنصة برمتها لأن الغطاء المعدني كان يعكس الضوء مباشرةً ، وظلت زوايا الغرفة حالكة .. جلس سليم فوق صندوق ، وجلس جورج قبالته . قال سليم :

– يا عزيزي .. ذاك أمرٌ لا يستحق التحدث عنه .. ومهما يكن من شيء فقد كنت مضطراً أن أقضي على النصف الآخر ، وما فعلته لا يقتضي شكراً ولا يستوجب حمداً . قال جورج :

– ربما كان ذلك في نظرك أمر غير ذي بال ، ولكنه يعتقد أنك منحته الدنيا وما فيها ، وليس من السهل إيواء الفتى هاهنا لأنه سيرغب في النوم مع الكلاب في الحظيرة .. وسيكون الأمر على غاية من الصعوبة ، ولن نستطيع منعه من النوم مع الجراء .

– يا عزيزي ، وهل يعقل هذا ؟ ثم عاد سليم إلى القول :

– أرأيت .. لقد كان حديثك في هذا الصدد صائباً وصحيحاً .. ربما لم يكن سويَّ العقل .. ولكنه في العمل لا يدانيه أحد ، وقد أوشك أن يقتل ذاك الفتى الطائش الذي يقاسمه العمل .. ما من أحد ينافسه ، وفي الحقيقة لم أشاهد طيلة حياتي شخصاً على هذا القدر من العزم والقوة والجلد .

انتفخت أوداج جورج زهواً ، وقال :

– إنك تستطيع أن تحدد لـ لانيا عمله ليتكفل بإنجازه على أكمل وجه .. ولا يجب أن يعامل معاملة العقلاء بحال من الأحوال ، إنه بطبيعة الحال لا يفكر في شيء ، ولكنه يلبي ما تأمره به ، وهذا أمر بدهي .

سُمع تردد صوت الصدى عن قرع مطرقة حديدية .. ثم سُمع صوتٌ آخر، ولكي يتجنب سليم سقوط الضوء على وجهه ، تقهقر قليلاً إلى الوراء ، وقال :

– من المذهل والغريب أنكما في الحقيقة صاحبان متلازمان ! .

كان سليم يحاول استدراجه كي يكتشف دخيلة نفسه ، فقال جورج متحفظاً ومتسائلاً ومستنكراً :

– وما وجه الغرابة في ذلك ؟ .

– لست أدري ، ولكنني لم ألتقِ بشخصين متصاحبين بهذا المقدار . فهل تعلم كيف يعيش العمال المياومون ؟ إنهم يحضرون ، ويُعرِّفون بما في جعبتهم وأمكنة نومهم ، .. يستمرون في العمل شهراً ثم يضجرون ، فيعافون العمل ثم يغادرون من تلقاء أنفسهم ، ولا يقيمون علاقات وطيدة مع

خرين ، لذلك فإنني مندهشٌ بسبب صداقة شخصٍ كهذا الفتى المعتوه
جلٍ مثلك ذكيٍّ ولبيب . قال جورج :
– لا .. إنه ليس معتوهاً .. ولا أستطيع نفي الحمق عنه .. ولكنه
ن معتوهاً أو مجنوناً .. وأنا لست ذكياً ولبيباً ، وإلا لما نقلت للآخرين
باس الشعير لأدرأ عن نفسي شبح المجاعة ، وأملأ بطني بالطعام .. ولو
ت نابهاً .. أو كنت متنوراً قليلاً لكانت لي أرض ، ولم يكن لي جلدٌ على
وان لدى الآخرين . كنت سأحرث أرضي ، ولكان لي بيدر .

صمت جورج . وكان يرغب في الإسهاب والاسترسال في الحديث ، إلا
سليم لم يبدُ عليه أنه متحمس كثيراً للإصغاء ، ولكنه لم يشأ أن يفسد
به بهجته واستمتاعه بالتكلم ، أو يجرح مشاعره ، فجلس صامتاً ..
خيراً ، تابع جورج :

– ليس في زمالتنا ما يثير الدهشة والاستغراب . نحن الاثنين ولدنا في
ربورن) .. كنت أعرف خالته (كلارا) . كان لانيا ما يزال طفلاً رضيعاً
ن تبنّته خالته كلارا ، وتعهدت بتربيته ونشأته حتى كبر وترعرع ،
ين ماتت خالته ، اصطحبني لانيا إلى العمل ، وبعد مضي وقتٍ غير
يل تآلفنا ، ومال كلٌ منا إلى الآخر . ولم نفترق منذ ذلك الوقت . فهمهم
يم .

نظر جورج إلى سليم وشاهد عينيه كعيني إلهٍ أسطوري وقال :

– عجباً .. فيما مضى كنت أسخر منه وأجعله أضحوكة ، وما كان يدرك مدى استهزائي به .. وكنت أعبث به بدميةٍ خرساء بالقدر الذي لا يستطيع التنبه إلى ذلك . ولئن طلبت إليه أن يقذف بنفسه من حالق لفعل .. وبعد مرور الزمن لم أعد أجد متعة في هذا العبث ، وتلاشت من نفسي روح السخرية ، وما كان يجد مضضاً أو غضاضة ، أو يحس بالغضب ... كنت أضربه ضرباً مبرحاً .. ولو أنه شاء أن يطوقني بيديه القويتين لأدخل أضلاعي بعضها في بعض .. ولكنه لم يكن يرفع في وجهي خنصره . تدفقت كلمات جورج واستمرّ :

– انظر .. لماذا أقلعت عن هذه الدعابات ؟ . ذات يوم اجتمع تسعة أو عشرة أشخاص لدى نهر (ساكرامنتو) فاشتهيت آنذاك أن أداعبه مداعبةً فظّة ، فقلت بعد أن استدرت إلى لانيا : هيا يا لانيا .. هيا اقفز . فوثب إلى النهر دون إحجام أو تردد ، ولم يكن له بالعوم تجربة ، وأوشك على الغرق فوثبت وراءه وسبحت إليه وأنقذته ، حينئذٍ شكرني وأثنى عليّ ولم يدر كيف يردّ لي هذا الجميل ، وقد توهّم لو أنه أضحى لي عبداً لما استطاع الوفاء بهذا الدين ، لأنه كان قد نسي بأنني كنت السبب ، وأنني أوعزت إليه أن يلقي بنفسه في الماء ، ومنذ ذلك اليوم لم أعد إلى مداعبته . قال سليم :

– إنه فتى رائع .. لكي يكون المرء رجلاً لا يفتقر إلى كثيرٍ من الفطنة والفهم .. حتى ليخيل إلي أحياناً أن العكس أيضاً هو الصحيح ، وفي الحقيقة لا يكون الشخص الألمعي بكامل المروءة إلا نادراً .

مرة أخرى ضمّ جورج تلك الأوراق المتنـاثرة فـوق المنصـة بعضـها فـوق بعض . وفي الخارج كانت النعال الحديديـة تقـع علـى الأرض وتصـدر صوتـاً مكتوماً، وضياء الشمس ما يزال ينير النوافذ . قال جورج :

– لم يبق من أفراد عائلتي أحد ، وليس لي أهل أو أقرباء ، وأنا لست سوى واحد من أولئك الذين يتعاطون العمل في المزارع بمفردهم ، وقد وجـدوا أن ذلك خالٍ من كل لـذة أو متعـة .. ولا يستسيغون أياديـهم ، وفي خاتمـة المطاف يتحولون إلى أفراد سيئين وإلى أشرار لا يُرغب فيـهم ، وهكـذا تعتـلّ أرواحهم ويستبيح المرض نفوسهم . قال سِليم :

– هذا صحيح .. يسوء مصيرهم ويؤولون إلى الدرك الأسفل من الشقاء، ثم يحجمون عن التحدث إلى الآخرين ولو بكلمة واحدة . قال جورج :

– في جلّ الأحيان يصبح لانيا عبئاً باهظاً لا يُحتمل ونصباً لا يُطاق .. بيد أن شخصين إن تآلفا واعتاد كل منهما صحبة الآخر سقّ على كلٍّ منـهما مفارقة خِدنه أو إهمال أليفه . قال سِليم :

– حقاً إنه ليس امرءاً سيئاً أو شريراً، وفي الوهلةِ يبدو ذلك على لانيا.

– أجل .. إنه ليس سيئاً ، ولكنه بسبب غبائه يلقي بنفسه – دائماً– في المآزق .. وهذا ما فعله في (ويد) . وعندما قلب جورج ورقة ظـهراً لبطـن ، توقف وقد أجفل ونظر متوجساً إلى سليم ، وقال :

– إنك لن تفشي هذا السر .. أليـس كذلـك ؟ . وبـهدوءٍ بـالغ ، قـال سليم :

– وماذا فعل في (ويد) ؟ .

– لن تخبر أحداً .. أليس كذلك ؟ إني على ثقة أنك لن تقول شيئاً .

عاد سِليم إلى السؤال :

– ماذا فعل في (ويد) ؟ .

– وماذا يستطيع أن يفعل ؟ شاهد مرة امرأةً متسربلة برداءٍ أحمر .. قلت لك أن صاحبنا ذاك ذو لوثة ، فإذا راقه شيء أحسّ برغبةٍ جارفة للمس ذاك الشيء ولا يرغب في أكثر من لمسه .. وعندما مدَّ يده كي يلمس رداء المرأة صرخت وولولت .. فصُعق لانيا من الدهشة ، وتبدد فكره لا يدري ماذا عليه أن يصنع ، ولم يسعه سوى التشبث بثوب المرأة القصير ، وهي ممعنة في الصراخ والعويل . لم أكن بعيداً عنهما . سمعت صراخ المرأة .. فهرعت إليهما .. لكن لانيا ظلَّ لشدة ذعره ولهول الموقف لم يجد مندوحةً سوى التشبث بردائها ، فاقتلعت عوداً من السياج ، وجعلت أنهال به ضرباً على رأسه أحضه على الإسراع في التخلي عن ردائها ، وكف يده عن المرأة .. ولكن هلعه الذي كان قد صفح به الكيل لا يجدي معه أي وعيد ، وليس من قوةٍ تستطيع ردعه عن الإمساك بفستان المرأة ... وأخيراً كما تعلم ، فإن لانيا ما إن يمسك بشيء حتى يمزقه .

قال سِليم مطأطئ الرأس ، ودون أن تهتز شعرة في جسمه :

– حسناً ... وماذا جرى أخيراً ؟ .

رصف جورج الأوراق المبعثرة أمامه بحرص وقال :

– وماذا سيجري ؟ هرعت المرأة إلى مركز (البوليس) وزعمت أن الرجل حاول اغتصابها .

أما فتيان (ويد) فقد حاولوا تطويق لانيا لإلقاء القبض عليه ، وانتشروا حوله هنا وهناك ، ولهذا اضطررنا إلى قضاء النهار برمته في حفرةٍ تغمرها المياه جاثمين على ركبنا .. نغطس في الماء حتى ذقوننا ، ولا يبدو من جسمينا سوى رأسينا .. وبفضل وصولنا إلى الحفرة نجونا .. في تلك الليلة مزقنا أكفاننا . صمت سليم فترةً ثم قال :

– إذن ، لم يمسس تلك المرأة بأذى .

– كلا أيها الفاضل .. لكنه أرعبها وحسب ، ولو أنه مدّ يده إليّ لامتلأت منه نفسي رعباً وهلعاً .. لكنه لم يؤذِ المرأة .. كان يودُّ لمس فستانها الأحمر .. قال سليم :

– إنه فتى لا بأس به .. إنني أعرف الأشخاص المنحطّين من أعينهم.

– أجل .. إنه هكذا .. ومذا عساي أن أقول ؟ إنه في المحصلة ...

دخل لانيا الغرفة ومعطفه الأزرق فوق عاتقه ، يسير مترنماً . قال جورج:

– قل لي الآن يا لانيا ، هل أعجبك الجرو ؟ .

نظر لانيا نظرةً بائسة ، وقال :

– الأبيض البني ... كان كما توقعت . وبحركة مقتضبة ترك جورج الأوراق ، وقال بنبرةٍ باردة :

- يا لانيا ا.

- ماذا ؟ .

- ألم أقل لك لا تجلب جروك إلى هنا ؟ .

- أي جرو ؟ ليس معي جرو أو غير جرو .

هرع إليه جزرج وأمسك بتلابيبه وأمره بالاضطجاع على ظهره فوق الأرض .. ثم أخرج الجرو من بين أحضانه . فهبّ لانيا واقفاً ، وقال :

- أعطني الجرو يا جورج . قال جورج :

- يجب أن تذهب بالجرو وتضعه في صندوقه .. يجب أن يظل مع أمه .. هل تنوي قتله ؟ إن الجرو صغير جداً ، ولم يمضِ على ولادته سوى يوم واحد .. لقد ولد مساء أمس وها أنت تخرجه من صندوقه ، فأسرع وأعده إلى مكانه وإلا أخبرت سليم ، وطلبت إليه أن يستعيد منك الجرو .

مدّ لانيا يده إلى الرجو متوسلاً :

- هيا أعطني الجرو يا جورج ، سأعيده إلى مكانه ، ولم أكن أرغب في إذيذائه يا جورج .. أقسم بشرفي .. لقد كنت أود ملامسته قليلاً .

سلّمه جورج الجرو وقال :

- حسناً .. أسرع الآن وخذه إلى مكانه ولا تخرجه ثانيةً من الصندوق ... وإلا فسينفق . وثب لانيا . لم يتزعزع سليم من مكانه ولاحق خروج لانيا بنظراته الساكنة .

- إنه كطفل في الخامسة من العمر . أليس كذلك ؟ .

– أجل .. إنه لكذلك .. وهو بريء كالأطفال ، وسوف يذهب إلى الحظيرة لينام بجانب الصندوق .. آه .. دعك منه وليفعل ما يشاء .. هناك لن يصيب أذاه أحداً .

خيّم الظلام ، فدخل الخادم العجوز جاندي الغرفة وقصد سريره وجلس عليه ، وكلبه العجز يسير وراءه بمشقةٍ بالغة .

– مرحباً يا سِليم .. مرحباً يا جورج .. ألم تخرجا لرياضة (النعال)؟.

قال سليم :

– لا يعجبني اللعب كل ليلة . تابع جاندي القول :

– أرجوكم .. من منكم لديه قطرة (ويسكي) . إن أحشائي تؤلمني .

قال سليم :

– ليس عندي .. وبطني لا يؤلمني ، ولئن وجدت (الويسكي) لشربته. قال جاندي :

– إنه ألمٌ مبرّح ، وهو بسبب أوراق (السلق) .. إنني أعرف ماذا سيصيبني منه قبل أن أطعم منه .

دخل كارلسون البدين من الردهة المعتمة إلى داخل الغرفة من الجهة الأخرى ، وأوقد القنديل ذا الغطاء المعدني :

– أيها الأولاد ... إن الظلام هنا حالك . تباً للزنجي .. إلى أين يرمي بتلك (النعال) ؟ . قال سليم :

– إنه حاذق جداً .

– ماذا تقول أيها الرجل ، إنه لا يدع المرء أن يفتح أجفانـه . توقـف وتنفس الصعداء ، وبعدما استنشق الهواء توجه إلى ناحية الكلب :

– أواه .. كم هي كريهة رائحة هذا الكلب .. اذهب به إلى الخارج يا جاندي .. هذه الكلاب الهرمة ! كـم تفـوح منـها الروائـح الكريهـة !! هيـا أخرجه . استدار جاندي وزحف حتى وصل إلى حافة سريره وقال معتذراً :

– إنه يرافقـني منـذ القديـم .. لذلـك لا أستـاف منـه رائحـةً . فقـال كارلسون :

– حسناً .. لكن رائحته تصيبني بالدوار .. إنـه وإن خـرج مـن الـدار فستظلُ رائحته النتنة عالقةً بالجو. دنا من الكلب بخطواتٍ وئيدة ورنا إليه :

– إنه أدرد، ولا يستطيع الانتصاب على قوائمه .. أية منفعة تجنيها من هذا الكلب الهرم يا جاندي ؟ الكلب نفسه لا ينتفـع بنفسـه ، فلمـاذا لا تقتل هذا الحيوان ؟ .

– قسماً .. إنه لم يفارقني منذ عهدٍ بعيد .. وقد ربيته مذ كـان جـرواً صغيراً. كنا نرعى معاً وجنباً قطعان الأغنام .. لعلكم حين تنظـرون إليـه الآن وهو في هذا الدرك من الذلُ والهـوان لا تصدقـون بـأنني في مجمـل حيـاتي لم أشاهد كلباً للرعي مثل هذا الكلب . قال جورج :

– كنت أعرف فتىً في (ويد) يقتني كلباً للرعي ، وله خبرة ومـراس بأنواع الكلاب الأخرى .

لم تفتر عزيمة كارلسون ، وظلُ متمسكاً بما يعرف :

– حذار يا جاندي .. إن هذا الكلب قد ينقل كثيراً من الأوبئة والأمراض .. أنصحك أن تمضي به ، وتطلق عليه رصاصة في هذه الناحية .

ثمّ انحنى وأشار إلى المكان الذي يجب أن يطلق عليه الرصاص .

– كلا .. كلا .. لا أجرؤ على ذلك .. لقد كان معي منذ القديم .

احتجَّ كارلسون قائلاً :

– إن الحياة هي بمثابة تعذيب لهذا الحيوان ، إضافةً إلى رائحته الكريهة كرائحة جيفة . هل أدلّك على أمر ؟ أستطيع أن أفعل ذلك بدلاً عنك .. حرصاً على مشاعرك . أدلى جاندي ساقيه من السرير ببطء .. ومسّد لحيته البيضاء المشعّثة غاضباً وقال :

– لقد تعودت عليه .. لأنني ربيته وهو جروٌ صغير . قال كارلسون :

– إن إبقاءك على حياته لا يعني أنك تحسن إليه .. أصغِ إلي .. لقد وضعت كلبة سِليم جراءً ، وإن شئت حصلت على جرو لتربيته .

ألقى الحوذي (سائق العربة) نظرةً من عينيه الساكنتين على الكلب الهرم وقال :

– أجل .. خذ جرواً ، إن كنت ذا رغبة في ذلك .

دفعةً واحدة وكمن يعترف ويقرُّ على نفسه :

– إن كارلسون على صواب يا جاندي . إن هذا الكلب لا يجرُّ نفعاً حتى لنفسه .. أنا فيما إذا هرمت وبلغت من العمر عتياً لتمنيت أن يمنّ أحدهم ويطلق عليّ الرصاص .

ولما كانت حجة سليم دامغة لا مجال لدحضها ، ولكلماته الصدى القانوني فقد حدّق فيه جاندي بمقلتين خوتا من كل أمل ، وقال :

– ربما تعذّب المسكين .. إن تربيته لا ترهقني . قال كارلسون :

– سوف أقتله بطريقةٍ شرعية وحسب الأصول ، ولن يشعر بألم . سأطلق الرصاص ها هنا . وأشار بمقدمة حذائه إلى المكان المعني .. وسوف ينتهي في الحال . ظلّ جاندي يرنو إلى وجوههم وكأنه ينتظر أن تومض أمامه بارقة أمل للخلاص .

دخل أحد العتالين الغرفة . كان يبدو وكأنه يحمل على عاتقه المنحدر إلى الأسفل عبئاً من الشعير .. كان يطأ على الأرض بمقدمة حذائه ويمشي مشياً مضطرباً مترنحاً . ثمّ توجه إلى سريره ووضع قبعته على أحد الرفوف . وبعد ذلك تناول من فوق الرفّ مجلة ، وعاد بها إلى المنصة حيث القنديل المتلألئ . تساءل :

– هل أريتك هذه يا سليم ؟ .

– ماذا تعني ؟ . تصفّح الفتى المجلة وقلب صفحاتها الخيرة ، ثم وضعها على المنصة وأومأ بيده :

– ليتك تقرأ ما في هذه الصفحة . انحنى سليم يقرأ ، فقال الفتى :

– هيا اقرأ بصوتٍ جهوريّ .

كان السيد المدير يقرأ الآتي بهدوء :

– « منذ ستة أشهر أتابع مواد مجلتكم .. وأواظب على قراءتـها وأنـا موقنٌ بأن مجلتكم من أفضل المجلات . وأنا معجب بقصص (بيتر رانـد) . إنه إنسانٌ رائع ، فلا تحرمونا مـن رواياتـه الشيقة مثـل : فـارس الحصـان الأسود ، ولست من أولئك الذين يكـثرون الرسـائل ، وقـد كتبـت لكـم هـذه السطور لأذكركم بأن مجلتكم هي من أفخر المجلات وأرصنها » .

رفع سليم رأسه ، وألقى نظرةً متسائلة ، وقال :

– لماذا ترغمني على قراءة هذه المجلة ؟ . قال ويت :

– ثابر على القراءة حتى تصل إلى الاسم المدوّن في ذيل الصفحة . فقرأ سليم : « وليكن النجاح حليفكم » . نظر وليام تينت مرة أخرى إلى ويـت ، وقال :

– لقد قرأت فماذا في ذلك ؟ .

– هل تذكر (بيل تن) ؟ كان يعمل هنا قبل ثلاثة أشهر .

– هل تزعم أنه كاتب هذه الرسالة ؟ .

– أجل .. إنه هو الذي كتبها . قال ويت بصوتٍ جهوري :

– إنه هو . قال سليم :

– مهما يكن من أمر فإنك على صواب ، وها هم قد نشروا رسالته .

– لا أشك في أنني و بيل كنا نجلس هنـا في بعـض الأيـام ، وفي يـده عدد جديد من المجلة وقد صدرت حديثاً .. تصفحها وقال لي :

- حررت كتاباً وأرسلته .. وسأرى إن كان منشوراً في هذا العدد ..

لكن الكتاب لم يكن منشوراً بعد . ثم قال لي بيل :

- لعلهم سينشرونها فيما بعد . وها هي رسالته منشورة الآن .

تناول جورج المجلة وقال :

- أعطنيها .

أراه ويت الرسالة ولكنه احتفظ بالمجلة وأشار إلى الاسم بإصبع السبابة، ثم توجه إلى الرف المتخذ من الصناديق ووضع عليه المجلة بعناية فائقة :

- تُرى هل رأى بيل المجلة ؟ لقد كنت وبيل نعمل معاً في حقول (الحمّص) وفي الحقيقة كان بيل فتىً كريماً وذا أريحية .

كل الأحاديث لم تُنس جاندي ولم تلهه عن موضوع كلبه ، فلم يكن يرفع عينيه عن الحيوان الهرم ، ويرسل نظرات كئيبة . وأخيراً قال كارلسون :

- إن شئت وضعت نهاية لعذاب هذا الحيوان ؟ ولن نعود للتحدث عنه مرة أخرى . ما معنى حياته تلك ؟ إنه لا يستطيع مضغ طعام ، ولم يعد مبصراً .. وحين يسير ، لا يسير إلا مجهداً متألماً .

أزهر الأمل في جنبي جاندي قليلاً فقال :

- ليس لديك سلاح كي ...

– ما هذا الهراء ؟ إنني أقتني مسدساً حربياً من طـراز (لوغـر) ولـن يتعذب قط . قال جاندي :

– غداً سنفكر ... فلننظر إلى الصباح . فقال كارلسون :

– وما سبب إرجاء ذلك إلى الصباح ؟ .

تقـدم إلى سـريره ، وأخـرج محفظتـه مـن تحـت الأريكـة ، ثـم فتـح المحفظة وأخرج منها مسدساً من طراز (*Luger*) ، وقال :

– أخيراً .. سنقوم بإنجاز هذه المهمة .. وهل يستطيع المرء تحمل هذه الروائح العفنة ؟ أو يستطيع الإخلاد إلى النوم مع هذه الروائح ؟ .

وضع المسدس في جيب سرواله الخلفي . أطال جاندي النظر إلى سـليم بإمعان علّه يعترض ، لكن سليم لم يفتح فمه ولم ينطق بكلمة . وبعدما يئـس قال :

– هيا خذه معك .. ماذا تريد أن تفعل ؟ . نظر إلى الكلب ثم رقد على السرير ووضع يديه تحت رأسه وحدّق في السقف .

أخرج كارلسون حزاماً قصيراً من جيبه ثم انحنى وطوّق به عنق الكلب .. وفي هذه الأثناء كـان الحـاضرون ينظـرون إلى المشـهد باسـتثناء جـاندي ، وبهدوء اقتاد الكلب وقال مؤاسياً :

– إنه لن يحسّ بشيء . لم يتحرك جاندي ولم يجب بشيء . سحب كارلسون الطوق وقال :

– هيا .. سر .

نهض الكلب بعد بذل جهدٍ مضنٍ ، وجرجر قوائمه على الأرض وسار تبع المقود الذي كان يجرّه . قال سليم :

– كارلسون .. هل تعلم ماذا ستفعل ؟ أليس كذلك ؟ .

– ماذا تود قوله يا سليم ؟ . قال سليم :

– خذ معك (رفشاً) .

– أجل ، هذا صحيح ، سآخذ معي (رفشاً) . قال ذلـك وخـرج إلى العراء والكلب من ورائه ، وكان جورج قد رافقه إلى الباب ، فأعاد الرتاج إلى مكانه وأوصد الباب دونه .

كان جاندي ممداً فوق السرير على ظهره يحملـق في السقف .. هتـف سليم بصوتٍ عالٍ :

– لقد تشقق حافر أحد بغـالي وسـوف أذهـب لأضـع عليـه شـيئاً مـن القطران .

سمع صوته جميع الحضـور في الغرفـة ، ثـم خـرج .. وبعـد .. حـين أصبحت الأجواء في الخارج ساكنة ولم يعد صوت خطوات كارلسون يُسمع ، وخيّم الصمت على الغرفة ، وطال به الأمد . قال جورج :

– أقسم بشرفي أن لانيا مازال في معية الجراء في الحظـيرة .. إنـه الآن صاحب جرو . ولن يقترب من هذا المكان بعد الآن .

قال سليم لـ جاندي :

– خذ ما تريــد مـن الجـراء . لم يجـب جـاندي . ومـن جديـد خيّـم الصمت على الغرفة وكان ذاك السكون مبعثه ظلمة الليل المنتشـرة في أنحـاء الغرفة . قال جورج :

– هل من أحد يرغب في مشاركتي اللعب ؟ . فقال ويت :

– أنا أستطيع ملاعبتك مرة أو مرتين .

جلس كل منهما إزاء الآخر تحت ضوء القنديل . توقف جـورج وكـفّ عن خلط الأوراق ، إذ أن الصوت المنبعـث منـهما كـان يلفـت انتبـاه جميـع الحاضرين في الغرفة ، فعاد إلى المكان الصمـت المطبـق مـن جديـد ... مـرت دقيقتان أو ثلاث دقائق على هذا المنوال ، وجاندي لا يزال راقداً على ظـهره فوق السرير دون حراك يرنو إلى السقف .. نظر إليه سـليم برهـةً ثـم نظـر إلى يديه ... وضع إحدى يديه فوق الأخرى وتركهما هامدتين .. وفي تلك اللحظة سُمع صوتٌ خافت من خلف الباب ، فتطلع الحاضرون صوب الباب بمسرة باستثناء جاندي الذي تشبّثت نظراته بالسقف . فقال جورج :

– لعلّ هناك فأراً ، ولا بدّ من نصب فـخ . لم يطـق ويـت مزيـداً مـن الصبر فقال :

– لقد أطلت فلماذا لا توزع الورق ؟ وهل سنستطيع اللعـب علـى هـذا المنوال ؟ .

بعـد أن وضـع جـورج حزمـة الأوراق علـى المنضـدة ألقـى نظـرة علـى القابعين في الخلف .. ران الصمت مرةً أخرى على الغرفة ، ومن بعيد سُـمع

صوت طلقة نارية ، فحدّق الجميع في العجوز .. أدام العجوز التحديق في السقف .. ثمّ رويداً .. رويداً .. استدار بوجهه إلى الجدار ، وران عليه صمتٌ عميق ...

في ضجةٍ وجلبة خلط جورج الأوراق وسلّمها إلى شريكه في اللعب . تناول ويت لوح الترقيم ووضعه أمامه ، ثم قال :

– هل جئتما حقاً للعمل ؟ . قال جورج :

– ماذا تعني ؟ . فابتسم ويت :

– لأنكما حضرتما يوم الجمعة ، وعليكما أن تعملا يومين إضافيين . قال جورج :

– لست أفهم هذه المعادلات .

– متى أمضيت ردحاً من الزمن في المزرعة لأدركت وفهت . ومن شاء أن يراقب المزرعة عن كثب عليه الحضور في يوم السبت من بعد الظهر .. إنه سيتناول العشاء ، وكذا وجبات يوم الأحد ثلاث مرات ، وفي يوم الاثنين تناول فطوره دون أن يتجشم عناء تحريك يديه .. ثم ينقل حمولة مركبته ويمضي .. بيد أنكما حضرتما في يوم الجمعة عند الظهيرة .. ومهما كانت حساباتكما فلا بدّ أن تعملا يومين إضافيين .

حدّق جورج في عينيه وقال :

– إذن سنبقى ها هنا .. إننا عازمون على جمع بعض المال .

فتح الباب ولج السائس الغرفة برأسه الفاحم ووجهه المرسوم بالأسى والحزن وعينيه القلقتين ، وقال :

– السيد سِليم .

– أجاب سليم الذي كان يمعن في مراقبة العجوز جاندي قائلاً :

– آه .. آه .. ماذا يا كروكز ؟ .

– لقد طلبت مني أن أغلي بعض القطران لمعالجة حافر حصانك .. إنه جاهز .

– أجل يا كروكز .. سأذهب لأدهن حافره بالقطران .

– إن رغبت يا سِليم قمت بهذه المهمة .

– لا .. سأفعل ذلك بنفسي . ثمّ نهض ، وتوقف كروكز .

– قل .

– ذاك الفتى الضخم الذي قدم حديثاً ، هو الآن موجود في الحظيرة يداعب جراءك .

– لن يلحق بها أذى .. لقد أعطيته أحد الجراء .

– إنما أردت أن ألفت نظرك إلى ذلك .. إنه يخرج الجراء من الصندوق ويضغط عليها بيديه ، وهذا لا يريح تلك الحيوانات المسكينة . قال سليم :

– لن يضرها ذلك .. سأخرج معك . رفع جورج رأسه ، وقال :

– إن كانت هذه الدابة الكبيرة مثيرة للشغب فاطردها .

خرج سليم . فسلّم جورج الأوراق إلى ويت ، فتناول الأوراق وشرع ينظر إليها ملياً :

– هل رأيت العصفورة ؟ .

– أية عصفورة ؟ .

– زوجة جارلي الجديدة .

– آه .. لقد شاهدتها .

– إنها امرأة ماجنة ، شديدة التبرج .

– لم أرها فترةً طويلة . وضع ويت الأوراق التي كانت بين يديه على المنضدة بخيلاء ، وقال :

– انتظر فترةً أخرى ، وكن متيقظاً .. وسوف ترى .. إن المرأة تتصرف علانيةً .. لم أرَ حتى الآن سلوكاً مثل سلوكها ، ليس لها شغل شاغل سوى الجري وراء الرجال ومراودتهم .. أقسم أنها الآن تحاول إغواء السائس . ما هي غايتها ؟. لست أدري ! .

قال جورج وكأن الأمر لا يعنيه :

– منذ مجيئك لم تحدث مشاجرات أو اضطرابات .

كان جلياً أن ويت لا يعير بالاً إلى الأوراق فقد وضعها فوق المنضدة . خلط جورج الأوراق مستخدماً إحدى يديه .. رصف سبع ورقات ، ثم وضع فوقها ست ورقات ، ووضع فوقها خمساً أخرى . قال ويت :

– إني أعلم ماذا تنوي قوله .. لا .. لم يحدث أمرٌ ما حتى الآن .
وكان جارلي دؤوباً في سحق براغيثه .. ومتى حضر أحد الفتيان إلى هنا ، جاءت المرأة فاعترضت سبيله وحاولت إغراءه وزعمت أنها تبحث عن جارلي، أو أنها فقدت شيئاً ، وهي تسعى وراء ضالتها ، وباختصار فإنها لا تكفّ عن ملاحقة الفتيان .. وجسم جارلي في كل الأحوال موبوء بالبراغيث ، ولم يستطع حتى الآن أن يفعل شيئاً . قال جورج :

– عقبى هذا الصنيع وخيمة ووبيلة .. من المؤكد أن كارثةً ستقع بسبب هذه المرأة .. إنها من النمط الذي يسعى دائماً للإيقاع بالرجال وأسرهم، وهي على أهبة الاستعداد دائماً .. مهمة جارلي شاقة ومضنية .. في المزرعة أفراد كثيرون .. ومثل هذه الأمكنة لا توائم النساء ، ولا تناسبهن .
قال ويت :

– إن شئت خرجنا غداً مساءً إلى المدينة .

– لماذا ؟ ماذا هناك ؟ .

– سنذهب مثل كل مرة إلى منزل (ماما سوزي) . في الحقيقة إنه مكانٌ رائع . إن (ماما سوزي) تستطيع إضحاك الجميع وإلقاء المرء على ظهره من فرط الضحك . إنها تكثر من الحديث عن أمور حسنة وأحداثٍ طريفة . في يوم الأحد المنصرم ذهبنا إلى هناك فأخلتنا دارها، وقالت لفتياتها :

– أيتها الفتيات .. هيا إلى ارتداء ملابسكن ، لقد حضر (الضابط) .
إنها لا تتصرف بخشونة .. خمس نساء طوع بنانها . سأل جورج :

– وكم من المال يكفي ؟ .

– دولاران ونصف الدولار .. كأس من (الويسكي) – هناك – تساوي خمسة وعشرين سنتاً .. وفي بيت (سوزي) أماكن ممتعة وظريفة للجلوس فيها .. وإن لم يجد المرء رغبةً في ملامسة النساء استطاع الاسترخاء على الأرائك واحتساء كؤوس من (الويسكي) ، وتزجية الوقت .. (سوزي) ليست مبالية وليست شديدة الحرص .. ولا تستعجل زوارها .. ولا تطرد أولئك الراغبين عن النساء . قال جورج :

– ربما حضرت لمشاهدة ذلك المكان .

– إن حضرت أحسنت صنعاً ، فسوف نمضي وقتاً ممتعاً مفعماً بالمسرة .. إن (ماما سوزي) تروي لنا كثيراً من الطرائف والقصص الغريبة الزاخرة بالمفارقات .. إن دعاباتها تلقينا على ظهورنا .. هل تدري ماذا قالت لنا ذات يوم ؟ قالت : « يخيل لبعض الناس عندما يفرشون على الأرض بساطاً ويعلقون فوقه قنديلاً مزخرفاً أنهم يديرون ماخوراً عاماً » . كانت تذمّ عائلة (كلارا) وتقدح في أخلاقها . قالت سوزي : « إنـي أعلم ماذا تبتغون أيها الفتيان .. بناتي نقيات ، سليمات ، خاليات من العلل والأسقام ، وما لديّ من (الويسكي) غير مروّق ولا يشوبه الماء ، ومن يشاء أن ينظر إلى المصابيح المزخرفة ويصاب بالأمراض الزهرية فإن المكان الذي يجب الذهاب إليه واضح ومعروف . إني أعرف كثيرين من الفتيان المتعجرفين المختالين عشاق البهرج والقناديل المزخرفة » .

قال جورج :

– إذن فإن كلارا تدير بيتاً آخر ؟ . قال ويت :

– أجل .. ولكننا لا نذهب إلى هناك .. يستطيع المرء مضاجعة كلارا بثلاثة دولارات ، والكأس من (الويسكي) تكلف خمسة وثلاثين سنتاً ، وهي إضافةً إلى هذا وذاك لا تجيد النكتة ، وتجهل الأحاديث الطريفة مثل (ماما سوزي) .. ثم إن منزل سوزي نظيف وأثاثه فاره وحسن ، ولكنها تأنف من إيواء أولئك المشاكسين الرعناء . قال جورج :

– أنا ولانيا نزمع جمع بعض المال ، وقد أخرج معك لاحتساء كأس ، ولكنني لا أرغب في إنفاق دولارين ونصف دولار . قال ويت :

– ربما رغب المرء أحياناً في إمتاع جسده .

فُتح الباب ، فدخل لانيا وكارلسون معاً ، ولكي يتفادى لانيا الأنظار ذهب إلى سريره وجلس . انحنى كارلسون وأخرج محفظته من تحت الأريكة وألقى نظرة على جاندي الذي كان ما يزال مضطجعاً ووجهه قبالة الجدار . أخرج كارلسون من الحقيبة فرشاةً صغيرة خاصة لتنظيف الأسلحة ، وكذلك قارورة زيت وضعها على السرير ، وتناول مسدسه ونزع بكرة الذخيرة ةأزال الطلقات منها ، وبتلك الفرشاة نظف أجزاء المسدس ، وبعدما سمع جاندي صوت الزناد ، التفت ونظر برهةً إلى المسدس ثم استدار بوجهه .

قال كارلسون اعتباطاً :

– ألم يأتِ جارلي بعد ؟ . قال ويت :

– كلا .. ما بال جارلي مرة أخرى ، دائب السعي هنا وهناك ؟ .

أغمض كارلسون أحد جفنيه وطفق يرنو إلى داخل أنبوب المسدس وقال :

– إنه يبحث عن زوجته .. لقد أقلق كل الأشياء .. إنه يمضي نصف وقته في البحث عن زوجته ، وتمضي زوجته النصف الآخر من الوقت في البحث عنه . دخل جارلي الغرفة بطريقة نزقة ، وقال :

– هل رأيتم زوجتي أيها الأولاد ؟ . قال ويت :

– إنها لم تأتِ إلى هنا . وزّع جارلي نظرات التهديد في الغرفة وقال :

– إلى أي جحيم ذهب سليم ؟ . فأجاب جورج :

– لقد ذهب إلى الإسطبل .. لقد نقبت حوافر حصانه فذهب إلى الإسطبل .. راح يدهنها بالقطران . أرخى جارلي عطفيه ونفخ صدره وقال :

– منذ متى ذهب ؟ .

– قبل تسع أو عشر دقائق .

اندفع جارلي كالسهم نحو الباب وخبطه وهو يغلقه وراءه . نهض ويت على قدميه :

– لا بأس أن يعاين المرء هذا .. فهي كلما ولّت فقد جارلي لبه وطار صوابه .. ولو لم يكن الأمر كذلك لما اعترض سبيل سليم وأغاظه . إن جارلي رجلٌ فطن وذكي .. ذكي جداً .. إنه في الطريق إلى إحراز درجة القفاز

الذهبي .. وهو يحتفظ بكل الجرائد التي تتحدث عنه .. فكر قليلاً ثم أردف:

– بيد أنه لو حاد عن طريق سليم لفعل خيراً .. إن سليم من معدن قوي . قال جورج :

– إنه يعتقد أن بين سليم وزوجته علاقات مريبة .. أليس كذلك ؟ .

قال ويت :

– هكذا يبدو .. في الحقيقة .. ليس بينها وبين سليم ما يدعو إلى الريبة .. ولا أميل إلى هذا الاعتقاد أبداً .. ولكن إذا ساءت الأمور توقعنا شراً مستطيراً .. هيا نذهب للمشاهدة . قال جورج :

– سأمكث هاهنا ولا أريد أن أدسّ أنفي في مثل هذه القضايا .. لقد فكرنا أنا ولانيا أن ندخر مالاً .

انتهى كارلسون من تنظيف مسدسه فأعاده إلى الحقيبة ، ودسّ الحقيبة تحت الأريكة ، ثم قال :

– فلأذهب مرة لأرى .

لم يكن جاندي العجوز ليتحرك من مكانه وكان لانيا رابضاً على سريره يتأمل جورج ، وبعد أن خرج ويت وكارلسون وأغلقا الباب وراءهما .. التفت جورج إلى لانيا وقال :

– فيم تفكر ؟ .

– لا أفكر في شيء يا جورج .. يقول لي سليم أنه من المستحسن أن لا أمسّ الجراء عدة أيام .. يقول سليم : « وهكذا لن ينالها سوء أو ضرر » ، لذلك عدت أدراجي إلى هنا .. لم أقترف ذنباً يا جورج .

– كان عليّ أن أنبهك إلى هذه الناحية .

– أقسم بشرفي .. إني ما سببت لها أذية .. كنت وضعت جروي فوق كاهلي أجسه ، ولا شيء سوى ذلك . سأل جورج :

– هل شاهدت سليم في الإسطبل ؟ .

– أجل لقد شاهدته ، ونصحني أن لا ألمس جروي .

– ألم تشاهد تلك المرأة أيضاً ؟ .

– كلا .. ربما كانت في الإسطبل لكنني لم أرها .

– ألم ترَ سليم يتحدث إليها ؟ .

– كلا .. لم أرها .. إنها لم تأتِ إلى الإسطبل . قال جورج :

– حسناً .. إنهما لن يشهدا عراكاً .. لا تتدخل فيما بينهما لو أنهما تعاركا يا لانيا ذات مرة . قال لانيا :

– لست راغباً في المشاحنات أو الشجار . قال ذلك ونهض عن فراشه وجلس بجانب المنضدة إزاء جورج ، ودون أن يحس جورج بوجوده خلط أوراقه ثم بددها . وعن سابق قصدٍ تصميم تحرك بمزيدٍ من البطء والهدوء ودون مبالاة .

مدَّ لانيا يده وتناول ورقةً وتطلع إليها بشغف ، ثم خفضها ، وقلبها رأساً على عقب وحدّق فيها مرةً أخرى وقال :

– إن رأسيهما متشابهان يا جورج ، فلماذا يكون رأساهما متشابهين؟.

قال جورج :

– لست أدري .. هكذا صنعوا .. وماذا كان سليم فاعلاً عندما وجدته في الإسطبل ؟ .

– سليم ؟ .

– أجل .. لقد رأيته في الإسطبل ، وقال لك : لا تضغط بيدك ضغطاً شديداً على الجراء ؟ .

– آه .. صحيح .. كانت في يده جرة وفرشاة ، ولا أعرف ماذا كان ينوي فعله .

– هل أنت واثق أن المرأة لم تكن حاضرة هناك ؟ وهل تذكر أنها جاءت في الصباح إلى هنا ؟ .

– لا .. لم أجدها في الداخل . هدأ جورج قليلاً وقال :

– آه .. هل فقد الناس بيوت الدعارة ؟ إن المرء يكون فيها حراً ، ويزاول رغباته دون حسيب أو رقيب .. إنك تعلم كم سيكلفك ذلك أخيراً .. لكن السقوط في هذه الأحابيل أمرٌ شائن ، ولا يرتجى منها الخلاص .

كان لانيا يصغي إلى تلك الكلمات حائراً مأخوذاً بما يسمع ، ولكي لا ينسى بداية الحديث حرك لسانه مهمهماً . تابع جورج :

- هل تذكر (آندي كوتشمان) يا لانيا ؟ كان يذهب آنذاك إلى المدرسة التحضيرية .

- هل تقصد ذاك الذي كانت والدته تصنع الحلويات للصغار .

- أجل .. إنك تتذكر الأمور التافهة .

تأمل جورج الأوراق المشرعة أمامه وأنعم النظر فيها . وضع الأوراق الأحادية في الصف الأمامي ، ووضع الورقات الثنائية والثلاثية والراعية إلى جانبها . قال جورج :

- إن (آندي) ذاك رهين السجن الآن بسبب زوجته . نقر لانيا بأصابعه على المنضدة وهتف :

- جورج ! .

- ماذا ؟ .

- إن ذاك البيت الذي سنسكنه مثل الأثرياء .. ثم .. كم أمامنا من الوقت كي نبتاع الأرانب ؟ . قال جورج :

- لست أدري .. في البدء علينا جمع بعض المال .. إنني أعرف رقعة صغيرة من الأرض يمكن اقتناؤها بنقود زهيدة .. غير أن أصحابها لن يمنحوها مجاناً للآخرين .

تحرك جاندي العجوز ببطء ، كانت قد جحظت عيناه وهو يصغي بانتباهٍ شديد إلى جورج . قال لانيا :

- تحدث لي عن ذلك يا جورج . قال جورج :

- البارحة حدثتك عن ذلك .

- حدثني مرة أخرى يا جورج .

- إنه (كانو) .. لديه خمسة هكتارات من الأرض ويمتلك طاحونة هوائية صغيرة ، ومنزلاً صغيراً وحظيرة ، وللمنزل مطبخ ملحق به وأشجار الجوز والتوت ، ولدى المالك ركن من الأرض لزراعة البرسيم .. والمياه وفيرة.

- والأرانب يا جورج ؟ .

- لا توجد أرانب الآن .. ولكنني على غايةٍ من اليسر والسهولة .. سأعدُّ وكراً أو وكرين للأرانب ، وسوف نقدم لها البرسيم علفاً .

- علمني كيفية تربيتها . نزع جورج يده من الأوراق ، وعلا صوته :

- وسوف يكون لدينا عدد من الخنازير ، وسنؤسس مثل جدي مصنعاً .. سنذبح الخنازير ونصنع من دمائها السجق ، وسنؤدي وظائف أخرى ، وبعد ذلك سنصطاد من النهر قرابة مائة سمكة ، ثم بملحها ونجففها ، وسنتناولها في فطورنا مع الشراب .. إنني مغرم بالسمك النهري . وفي مواسم الفاكهة سنصنع أنواعاً من المربى . إن صناعة ربّ البندورة أمر يسير ، وفي كل يوم من أيام الأحد سنطبخ دجاجاً أو أرانب .. وربما كانت لدينا بقرة أو عنزة ، وسيكون حليبها كثيفاً ويصعب إزالة القشطة إلا بمدية أو ملعقة .

كان لانيا يصغي محملقاً بعينيه .. ولم يكن جاندي العجوز ليقطع بصره من جورج . قال لانيا بدعة :

- سنعيش كما يعيش الأثرياء . قال جورج :

– لا ريب في ذلك .. وسيكون في بستاننا شيءٌ من البطيخ ، وإذا اشتهينا تذوق (الويسكي) بعنا حليباً أو بيضاً أو شيئاً آخر واشترينا حاجتنا منه .. سنعيش هناك ، وسيكون ذاك المكان لنا داراً ومثوى وموئلاً ، ولن نفتقر إلى وجبات المطاعم الرديئة .. لا .. لا .. سيكون لنا منزلنا الخاص ولن ننام في المهاجع . قال لانيا متوسلاً :

– لا بأس يا جورج .. هلا حدثتني عن المنزل .

– نعم .. سيكون لنا منزل .. لكل منا غرفة .. وستكون لنا مدفأة مستديرة سنوقدها في أيام الشتاء الباردة ، ولأن أرضنا غير شاسعة فلن نجهد أو نتعب كثيراً .. قد نعمل في اليوم ست ساعات أو سبع ساعات .. ولن نذهب لنقل غرائر الشعير إحدى عشرة ساعة متواصلة ، وبعد أن نزرع شيئاً فسوف نجني غلاله بأنفسنا وسنرى بأم أعيننا ماذا تنتج أرضنا من الثمرات . قال لانيا بحرارةٍ وحماس :

– وسنقتني الأرانب .. وسأعتني بها .. حدثني يا جورج كيف سأهتم بها ؟.

– سنحمل كيساً ونتوجه إلى الأرض المزروعة بالبرسيم وستملأ الكيس كلأً وتمضي به إلى حظيرة الأرانب . قال لانيا :

– وسوف تقضم الأرانب الكلأ .. هل شاهدت الأرانب وهي تأكل ؟ أنا بالذات شاهدت ذلك . قال جورج :

– بعض الأرانب تلد في العام ست مرات أو سبعاً . لذلك ستكثر أرانبنا وستفي بحاجتنا من طعامٍ وبيع ، وسنربي أعداداً من طيور الحمام تحلق وتطوف حول الطاحونة . نظر بقلبٍ مفعم بالحبور والغبطة إلى الجدار الذي يعلو رأس لانيا ، وقال :

– كل ذلك سيكون في حوزتنا وضمن ممتلكاتنا .. ولن يقدر أحد على نفينا أو طردنا .. وإن سخطنا على أحد قلنا له : هيا اذهب وأدر لنا ظهرك .. وحذار إن لم يذهب ، ولئن قدم علينا ضيف أو صديق ، فسيكون له سرير ينام عليه ، وسوف نلحّ عليه و نصرّ : لماذا لا تبيت الليلة هنا ؟ وسوف يذعن ويمكث معنا . وستكون لدينا كلاب للصيد وبعض القطط .. ولكن القطط تلتهم صغار الأرانب فكن من ذلك على حذر . كان لانيا يزفر ويشهق لاهثاً :

– إن استطاعت فلتلتهم فسأريها كم زاوية في هذا العالم . هدأت أنفاسه .. وجعل يفكر في الأمر ويهدد ويتوعد القطط المعتدية على أرانبه بينه وبين نفسه .

كان جورج غارقاً في فيض أحلامه الذهبية العذبة ، ولما بدأ جاندي يتكلم وثبا من مكانيهما وبوغتا وكأنهما قد اقترفا جنحةً . قال جاندي :

– وهل تعرفان مكاناً بهذه الصفات ؟ .

وبعد أن استعاد جورج رباطة جأشه وثابت إليه الطمأنينة قال :

– إن كنا نعرف أو لا نعرف فهذا لا يعنيك .

– كلا يا عزيزي .. أنا لم أسألكما عن موقعه وليكن أين ما كان . قال جورج :

– إنك إن بحثت عن هذا المكان مئات السنين فلن تعثر عليه . قال جاندي بانفعالٍ ظاهر :

– ترى كم يطلبون ثمناً لهذا المكان ؟ . رمقه جورج بعينٍ ملؤها الارتياب وقال :

– آه .. إني على يقين بأنني قادر على الحصول عليه مقابل ستمائة دولار .. لقد أفلس العجوزان القيمان في هذه الأرض .. وزوجة العجوز بحاجة إلى إجراء عملية جراحية ، ولكنني أقول لك لماذا تتدخل في شؤوننا ، ولماذا تحشر أنفك في مسألة غيرك ؟ . قال جاندي :

– إنني لا أصلح للعمل وأنا بيدٍ واحدة ، لقد فقدت إحدى يديّ في هذه المزرعة ، لذلك فهم يكلفونني بأداء أشغال هينة . لقد قبضت تعويضاً مقداره /٢٥٠/ دولاراً عن فقدان ذراعي ، وادخرت إلى ذلك خمسين دولاراً فصار المبلغ كله ثلاثمائة دولار أودعته المصرف وسوف أحصل في نهاية الشهر على خمسين دولاراً .. أصغ إلى ما سأقوله لك (انحنى بحماس) ، وقال : خذوني معكم أيها الأولاد .. فما رأيكما ؟ .. إنني أستطيع المساهمة في هذا المشروع بمبلغ ثلاثمائة وخمسين دولاراً .. لا أصلح للعمل كثيراً ، ولكنني أجيد الطبخ ولي معرفة بإعداد الأطعمة ، وأستطيع رعاية الدجاج ، وكذا تعشيب الحديقة قليلاً .. ها .. فماذا تقولان ؟ .

أغمض جورج عينيه نصف إغماضة ، وقال :

– دعني أفكر قليلاً، لأننا كنا بصدد أن نقوم بهذا العمل ونحن اثنان.

قاطعه جاندي وقال :

– سأحرر وصية إذ ليس لي أهل أو أقرباء ، ومتى متُّ ورثتما حصتي .. ولكن هل لديكما أموال ؟ فلعلنا نستطيع إنجاز هذا المشروع . بصق جورج غاضباً وقال :

– كل ما لدينا من أموال هو عشرة دولارات .. وفي هيئة من يفكر أضاف: أصغ إليّ .. إن عملنا أنا ولانيا شهراً كاملاً دون أن ننفق شيئاً لتوفر لدينا مائة دولار وسيصبح المبلغ بالإضافة إلى ما لديك أربعمائة وخمسين دولاراً ، وبهذا المبلغ سنستطيع تحريك مشروعنا .. أنت ولانيا ستفرغان للعمل هناك وسأسعى للحصول على عمل لأداء ما يترتب في ذمتنا من ديون .. وفي تلك الفترة تستطيعان بيع البيض .

صمت الجميع وتبادلوا النظرات في ذهول ، فها هو الحلم الذي كان يراودهم ولا يصدقون تحقيقه ، يتحقق الآن . قال جورج مزهواً :

– لقد أتممنا الصفقة وكفى .

جلس جاندي إلى حافة سريره ومدّ يده المبتورة وقال :

– قبل أربعة أعوام بترت يدي .. إنهم على وشك أن يقذفوا بي بعيداً .. فمتى عجزت عن أداء هذه المهام الصغيرة ولم أعد قادراً على كنس غرفة طرحوني في دار للعجزة .. سأدفع لكما ما لديّ من مال ولكنني لست قادراً

على أداء أعمال شاقة ، ولكنني سأقوم بتعشيب الأرض .. وسوف أغسل الصحون والأواني وسأؤدي أعمالاً خفيفة أخرى ، وأتفرغ للعمل في غرفتي الخاصة . ثم قال بصوتٍ ينضح بالأسى :

– لقد رأيتما ما فعلوا بكلبي هذه الليلة .. أليس كذلك ؟ يقولون بأنْ لا خير فيه ويقولون : لا خير فيه لنفسه .. ومتى طرحوني خارجاً فلعل أحدهم يتكرم بإطلاق رصاصة على رأسي فأرتاح ، لكنّ أحداً لن يفعل هذا .. ولن أجد مكاناً أقصده ، وإلى حين مغادرتكما هذا المكان سأكون قد ادخرت ثلاثين دولاراً أخرى .

نهض جورج ثم عاد إلى الجلوس .. سرّته مباهج الحلم الزاهي . كان الجميع يعيشون الحلم الجميل المتألق ويفكرون في الطرق التي تقربهم من تحقيقه ، دون أن تصدر عنهم نأمة أو تطرف لهم عين .. هكذا كانوا جالسين ، يحققون حلمهم . قال جورج مسترسلاً وراء حلمه الندي :

– لا بدّ أن يقام احتفال في يوم من الأيام ، وقد تحضر إلى المدينة فرقة للألعاب البهلوانية (سيرك) ، وقد تجري مباراة بكرة السلة .. لست أدري .. هناك مباهج كثيرة .. وفي أيام الآحاد سنتوقف عن العمل ونقصد المدينة ترفيهاً عن نفوسنا . هزّ جاندي العجوز رأسه . قال جورج :

– سنتأهب للذهاب .. فماذا سيحدث ؟ لن نستأذن أحداً سنذهب وكفى .. سنقول : فلنذهب ثم ننطلق وما نلبث أن نخرج . سنجلب الأبقار .. سنعلف الدجاج ثم ننطلق إلى غاياتنا . قال لانيا :

– سنطعم الأرانب كلاً .. ولن ننسى الاعتناء بها . متى سنبدأ هذا العمل يا جورج ؟ .

– بعد مضي شهر آخر ، بعد شهر آخر تحديداً .. هل تدري ماذا سأفعل ؟ سأرسل كتاباً إلى المقيمين هناك وأنبئهم إلى رغبتنا في الشراء .. وسوف يرسل جاندي المائة دولار الأخرى . قال جاندي :

– لا بدّ أن لديهم مدفأة جيدة . أليس كذلك ؟ .

– أجل .. لديهم مدفأة جيدة تصلح لحرق الحطب والفحم الحجري .

قال لانيا :

– سأصطحب كلبي الصغير . أقسم بشرفي إن ذلك المكان سيروقني .

كان صوت في الخارج يزداد اقتراباً ، فقال جورج على عجل :

– لا تفشوا هذا السرّ ولا تحدثوا أحداً بشيء مما قيل . هتف جاندي:

– جورج ! .

– ماذا ؟ .

– كان عليّ أن أقتل كلبي يا جورج .. وكان لزاماً علي أن لا أسمح لغريب أن يقتل كلبي .

فُتح الباب .. دخل سِليم الغرفة ثم تبعه جارلي وكارلسون وويت .. كانت يدا سليم ملطختين بالقار ، وكان يتميز من الغيظ ، وجارلي ملتصق بذراعه . قال جارلي :

– لم أقل ذلك بدافع من سوء الظن يا سِليم .. لقد خطـر لي أن أسـأل وكفى. قال سِليم :

– حسناً ..ولكنك تكثر من الأسئلة .. وأي ذنبٍ لي إن كنـتِ لا تـهتم بزوجتك المصونة ، فلا تصدع رأسي بلجاجتك .

– يا عزيزي .. إنني لم أقصد الإساءة . ولكن قلت لا بأس من التساؤل فلعلك شاهدتها ، ولهذا سألتك . تدخّل كارلسون :

– ولكن لماذا لا تقرّ بأن هذه المرأة يجـب أن تلـزم بيتـها ، فلـو أنـها دأبت على التجول والتسكع هنا وهناك فلا بد أن يحيق بك بلاء لا تسـتطيع إلى دفعه . أخيراً اهتاج جارلي والتفت إلى كارلسون وقال :

– على المرء أن لا يتدخل في شؤون الآخرين ، وإلا طُردوا .

ضحك كارلسون وقال :

– أيـها المـأفون الأرعـن .. أردت التحـرش بسـليم .. لكنـك لم تفلـح وأوقفك عند حدك .. أخشى أن يكون مثـل الأرانـب .. إنـه الملاكـم الأول في البلاد .. إني لا أبالي بهذه الألقاب .. إن كنت شهماً فهلم اعترض سبيلي .. ومتى لكمت وجهك جعلته كساحة سوق الأربعاء .

ساهم جاندي برضى في الشجار وقال ساخطاً :

– قفاز مليء بالفازلين .. تفو .

نظر إليه جارلي حانقاً ، ثم التفت إلى لانيا الـذي كـان يحلـم باقتنـاء حديقة ويبتسم فرحاً ...

دخل جارلي مثل كلب تحت إبط لانيا وقال :

– وأنت لماذا تضحك ؟ .

– ماذا ؟! . أفرغ جارلي مكنون حقده مسعوراً :

– تعال إلى هنا أيها الوغد .. انهض .. فهل تحسبني أسمح لك أن يسخر مني ابن عاهرة مثلك ؟ الآن سأريك من منا هو الجبان .

نظر لانيا بأسى إلى جورج .. نهض وأراد أن يتقهقر إلى الوراء .. وضع جارلي جسمه في وضعية الملاكمة ... انهال بلكمة من يده اليسرى على وجه لانيا ثم سدد بيده اليمنى لكمة مباشرة إلى أنفه ، فصرخ لانيا مذعوراً وانبثق الدم من خيشومه ، وقال :

– جورج .. قل لهذا أن لا يضربني . تراجع حتى وصل إلى الجدار ، فتبعه جارلي وثابر على إنزال اللكمات على وجهه .. رفع يديه ولكنه لم يستطع اتقاء الضربات . كان مذعوراً .. نهض جورج ، وقال صارخاً :

– لا تقف مكتوف اليدين .. بادله الضرب .

غطى لانيا وجهه بكفيه العظيمتين .. وكان يصرخ ويئن هلعاً وفرقاً :

– قل له أن لا يضربني يا جورج . في هذه المرة أصابه جارلي بكلمة موجعة في بطنه كتمت أنفاسه :

– أيها الغادر السافل .. الآن سألقنك درساً . مدّ جورج يده إلى سليم وأوقفه . وقال :

- اصبر لحظة . وضع جورج يديه على فمه وجعلهما بمثابة قمع وصرخ بأعلى صوته :

- لانيا ... اضربه .

أنزل لانيا يديه عن وجهه وطفق يبحث عن جورج بنظراته .. وفي هذه الأثناء لكمه جارلي مرة أخرى على وجهه ، وفي غمرة هذه الضربة غطّت الدماء وجه لانيا العريض . صرخ جورج مرة أخرى :

- اضربه يا لانيا .. لا تخف .

ولما رفع جارلي يده في هذه المرة تلقّفها لانيا وبعد برهة بدا جارلي كسمكةٍ دائخة معلقة بالصنارة ، ثم خرّ على وجهه .. كانت يد قد ضاعت بين كفّ لانيا الضخمة . هرع إليهما جورج وقال :

- كفى .. دعه يا لانيا .

لكن لانيا الذي داهمه الرعب ووقع تحت سلطانه ، كان يحدق في الرجل المستسلم لقبضته الرهيبة لا يسمع نداءً .. كان وجه لانيا ينزف دماً وقد تورمت إحدى عينيه وأغمضت ... صفعه جورج عدة صفعات ، لكن لانيا لم يفرد قبضته . كان لون جارلي قد صار أبيض كالجير . ولم يكن يبدي حراكاً ، وظلّ هامداً في المكان الذي سقط فيه على الأرض ، وبات يصرخ كلما ضغط لانيا على يده .

ثابر جورج على الصراخ :

– دع يده يا لانيا .. وأنت يا سِليم أسرع للنجدة وإلا لأتلف يد الرجل ومزقها شر ممزق .

ترك لانيا يد الرجل ، وذهب إلى ركن من الغرفة وجلس بصوتٍ يشوبه الخوف :

– أنت الذي طلب مني ذلك ، فلبيت طلبك يا جورج ، ولم أكن أريد أن أفعل شيئاً .

ثم انحنى سليم وكارلسون عليه وأخيراً قال سليم لـ لانيا في ذعر :

– يجب أن نمضي به إلى الطبيب .. لقد سحقت عظامه .

فصرخ لانيا :

– لم أكن أنوي فعل شيء .. لم أكن أقصد إيذاءه . فقال سليم :

– هيا إلى المركبة يا كارلسون .. علينا تضميد يـده في (سـوله داد) .

أسرع كارلسون في الخروج .. واستدار سليم إلى لانيا الذي كان يختلـج صـدره بالنحيب وقال :

– لا تثريب عليك .. ليس الذنب ذنبك .. منذ زمنٍ بعيد كـان عازمـاً على الشر .. آه .. لم يبقَ للرجل شيء اسمه (اليد) .

هرع سليم وجلب كأس ماء ودسّها في فم جارلي . قال جورج :

– يا سِليم .. هل ستمنح الجوازات ؟ وهل نحن الآن بحاجة إلى المال؟ هل سيمنحنا والد جارلي الجوازات الآن ؟ .

ابتسم سليم وجلس القرفصاء ، قرب جارلي :

- هل ثاب إليك رشدك .. هل ستفهم ما سأقوله لك ؟ .

فهزّ جارلي رأسه وكأنه يقول : نعم .

- إذن فاسمع .. إن يدك قد تعطّلت بسبب آلة في المزرعة ، فإذا كتمت ما ألم بك ولم تخبر به أحداً كتمناه واتخذناه سراً . وإن شئت إفشاء هذا الذي جرى معك لتطرد الرجل ، فإنه سيضطر الى البوح بحقيقة الأمر ، وفي ذلك ذلٌ ومهانة . قال جارلي :

- لن أفشي النبأ . قال ذلك وهو يتجنب النظر إلى لانيا .

سُمع في الخارج صوت قرقعة ، فساعد سليم جارلي على النهوض وقال :

- هيا يا جارلي سأذهب بك إلى الطبيب .

وبعد ذلك ساعد جارلي على الخروج .. بيد أن الصوت الصادر عن المركبة بدأ يبتعد ، وبعد برهة عاد سليم أدراجه إلى الغرفة .. وبينما كان لانيا ما يزال منقبض الصدر منكمشاً على نفسه رهبةً وهلعاً ، قال له سليم :

- أرني يديك . مدّ لانيا يديه فقال سليم :

- واويلتاه .. إنني أمتلئ منك رعباً . تدخل جورج قائلاً :

- كان لانيا قد خامره الخوف فلم يدر ماذا يفعل .. ألم أقل لك إن الشجار معه عملٌ جنوني .. ألم أقل هذا يا جاندي ؟ .

نظر جاندي نظرةً صادرة من الأعماق وقال :

– هذا صحيح .. وعندما بدأ جارلي صبيحة هذا اليوم في معاكسة رفيقك ، قلت : « من الخير له أن لا يعترض سبيل لانيا » ، وهذا ما قلته لي على وجه التحديد . التفت جورج إلى لانيا وقال :

– إنها ليست خطيئتك وما من داعٍ إلى خوفك .. لقد نفذْت رغبتي ومن الأفضل أن تذهب وتغسل وجهك قليلاً .. لقد أتلف وجهك .

قال لانيا من خلال شفتيه المكلومتين :

– لم أكن أرغب في جلب البلاء لك . سار قليلاً نحو الباب ثم توقف فجأةً واستدار إلى الوراء وقال :

– جورج ا.

– ماذا ؟.

– هل سأعتني بالأرانب يا جورج .. بعد الذي كان يا جورج ؟ .

– لا شك أنك لم تجترح إثماً .

– لم تكن لي غاية سيئة أو شريرة يا جورج .

– هيا اذهب واغسل وجهك جيداً .

* * *

الفصل الرابع

كان السائس كروكز الزنجي يقيم في غرفةٍ لعدّة الأحصنة ملاصقة للإسطبل ، وفي إحدى جهات هذه الغرفة وُجِدت نافذة مربعة الشكل ، وفي جهة أخرى من هذه الغرفة الصغيرة كنت تجد باباً صغيراً يفضي إلى الإسطبل. كان سرير كروكز مؤلفاً من أحد الصناديق المستطيلة في الغرفة ، وعلى هذا السرير كان يفرش بطانيته . كانت السروج المهترئة ، المعدة للإصلاح وسيور من جلود جديدة تتدلى على الجدار بجانب النافذة .. وتحت النافذة على وجه التحديد وُضعت منضدة صغيرة .. وقد رصفت على المنضدة بعض الآلات الصغيرة من سكاكين معقوفة وإبر ومخرز مستدق وعلى خطاف عُلّق نيرٌ معطوب ، وإلى جانبه رسنٌ التصق به شعر الخيول يترنح و يتأرجح، ومن فوق سرير كروكز علّق صندوق من صناديق التافح وفي هذا الصندوق رصفت أدوية تخصه ، وبعض هذه الأدوية تخصُّ الحيوانات ، وقطع من الصابون لصيانة عدة الخيل .. وفي جرة للقطران ذات مقبضين ظهر جزء من مقبض فرشاة ، وعلى الأرض تبعثرت أدوات لاستعماله الشخصي . ولما كان كروكز يعيش بمفرده ، لم يجد ضرورة لترتيب أمتعته ووضعها في أماكنها الخاصة المناسبة .. ولما كانت ساعات عمله تستغرق وقتاً أطول من أوقات العاملين الآخرين فقد كثرت أمتعته وآلاته على مرور الأيام .

كان يقتني عدة أزواج من الأحذية ، ونعالاً طويلة الساق صنعت من المطاط ، وساعة كبيرة ذات منبه ، وبندقية ذات حلقة واحدة . وكان إلى جانب ذلك يقتني كتيباً مجلداً قديماً يبحث في قانون كاليفورنيا المدني ، وكتباً متسخة موضوعة على الرف فوق سريره . و(نظارات) مصنوعة من قوقعة السلاحف تتدلى من وتدٍ مغروز في الحائط فوق سريره .

كانت الغرفة قد كُنِّست وبدت غايةً في النظافة ، وكان كروكز رجلاً متأنقاً ، يتحلى بالشهامة والمروءة ، يحترم الآخرين ولا يسيء الأدب أمام أحد ، ويحرص على أن يبادله الآخرون هذا الاحترام . ولما كان أحدب الظهر فقد اتّخذ جسمه وضعاً بحيث يميل قليلاً إلى ناحية الشمال . ولما كانت عيناه الغائرتان في محجريهما غوراً كبيراً فقد بدتا شديدتي التألق واللمعان بسبب هذا الغور .. وكانت شفتاه الرقيقتان مطبقتين على مضض وتألم ، وبدتا أقل سمرةً من لون بشرته .

كان الوقت عشية يوم السبت ، وكانت جلبة وحرة تنبعث من خلال الباب المنفتح على غرفة السائس ، كما سمعت أصوات النعال التي تخبط على الأرض واصطكاك أضراس الدواب وصليل الأعنّة الحديدية .. وفي غرفة السائس أضيء مصباح كهربائي يشعّ بنور أصفر خافت .

كان كروكز جالساً على سريره ، وقد خرجت أهداب قميصه من تحت سراويله وفي يده قارورة زيت ، وبيده الأخرى يفرك عظام ظهره .. كان يسكب بين حينٍ وآخر قطرات من زيت القارورة على كفه الزهرية اللون ، ثم

يدسّها تحت قميصه حتى تصل الى ظهره فيفركه مرةً أخرى .. كان يفعل ذلك وأعصاب ظهره تتقلص وترتعش .

ظهر لانيا من خلال الباب المفتوح وقد سدّ فراغ الباب بكتفيه العريضين ، ومكث واقفاً يحدّق. في البدء لم تلمحه عين كروكز ، ولما رفع رأسه لاحت على وجهه إمارات الاستياء فسحب يده من تحت القميص .

حار لانيا في أمره ولم يدر ماذا يفعل ، فافترّ ثغره عن ابتسامةٍ ودية .

قال كروكز بصوتٍ مرتعش :

– بأي حق تدخل الغرفة ؟ إنها غرفتي الخاصة ، ولا يحقُّ لأحدٍ سواي دخول هذا المكان .

ازدرد لانيا ريقه وازدادت ابتسامته اتساعاً وقال :

– لا أفعل شيئاً .. جئت أرى جروي .. رأيت غرفتك مضاءة فعنَّ لي أن أحضر .

– أليس من حقي أن أنير غرفتي ؟ هيا اخرج من غرفتي .. إنكم لا ترغبون في مجيئي الى غرفكم ، وكذلك لا أرغب في مجيئكم إلى غرفتي .

سأل لانيا :

– لماذا يرفضون أن تذهب إلى غرفهم ؟ .

– لأنني زنجي .. إنهم يشاطرون بعضهم بعضاً في اللعب بالورق ولكنهم يمتنعون عن مشاركتي باللعب .. وسبب ذلك ليس سوى بشرتي

السوداء وانتشار رائحتي الكريهة كما يزعمون .. ولكـن سأقول لك شيئاً .. والحقيقة ، لا تفوح الروائح الكريهة إلا منكم .

استشاط لانيا غضباً وأرخى يديه الهائلتين إلى جانبيه وقال :

– لقد ذهب الجميع إلى المدينة .. سليم وجورج .. الجميع ذهبوا .. قال لي جورج : « امكث هنا وكن عاقلاً » . وقد وجدت غرفتك مضاءة و ...

– ماذا تريد أن تقول ؟ .

– لا شيء .. لقد أبصرت النور فخطر لي أن أحضر وأجلس قليلاً من الوقت .

نظر كروكز إلى لانيا بإمعان ، ثم أخرج (نظاراته) من تحت حزامه وعلقها على أذنيه الحمراوين ، وبعد ذلك أعاد النظر إلى لانيا ، وقال مستنكراً :

– حسناً .. ماذا ستفعل في الإسطبل ؟ .. لست سائق عربة ، فما علاقتك بالخيول ؟ . قال لانيا :

– جئت أشاهد كلبي .

– ومن يمنعك من ذلك ؟ ولكن لا تدخل مكاناً لا يريد أصحابه أن تدخله . لم يسعَ لانيا إلا أن يبتسم ويسير خطوة نحو الباب ثم تذكر وتقهقر عن الباب وقال :

– لقد نظرت قليلاً إلى الجراء .. يقول سليم : لا تداعب الجراء ولا تلمسها كثيراً .

قال كروكز :

– ليس لك عمل سوى أن تخرجها من الصندوق .. وإني مندهش كيف أن أم تلك الجراء لا تنقلها إلى مكانٍ آخر هرباً منك .

– إنها غير عابئة بي .. ولا تعيرني بالاً .

سار لانيا مرة أخرى نحو الغرفة . كان كروكز قد قطّب ما بين حاجبيه ولكن ابتسامة لانيا البريئة حطّمت مقاومة كروكز ، فقال :

– ادخل .. واجلس قليلاً .. يتضح لي أنك آليت على نفسك أن تزعجني ولا تذر لي سبيلاً إلى الراحة .. فادخل إذن واجلس . ثم لعلع صوته مرة أخرى : إذن لقد ذهب الجميع إلى المدينة .. ها ؟ . قال لانيا :

– ذهب الجميع .. ولبث جاندي .. إنه جالس في المهجع .. يبري قلمه ، ويجري بعض الحسابات . قوّم كروكز (نظاراته) وقال :

– يجري الحسابات !؟ ماذا يحسب جاندي ؟ .

قال لانيا بصوتٍ مدوٍّ :

– يجري حساباً للأرانب . فقال كروكز :

– هل أنت معتوه! إنك مجنونٌ كبير! ما لك تتحدث عن الأرانب ؟ .

– إنني أتحدث عن الأرانب التي سنقتنيها ، تلك الأرانب التي سأربيها ، سأجمع لها الكلأ ، وأسقيها الماء . قال كروكز :

– حقاً إنك لمعتوه .. ذاك الرجل الذي يرافقك لم يتخذك صاحباً عبثاً.

– إنني أقول الصدق .. سنشتري تلك المنطقة .. سنشتري مزرعة صغيرة ، وسنعيش هناك كالأثرياء .

عدّل كروكز جلسته فوق السرير وأراح نفسه قليلاً :

– اجلس هناك على برميل المسامير .

جلس لانيا فوق برميل المسامير وقال :

– لعلك تحسبني كاذباً ، ولكني لا أكذب .. كل ما أقوله صحيح .. إن كنت في ريبٍ مما أقول فاسأل جورج .

وضع كروكز حنكه الداكن بين كفيه الزهريتين وقال :

– إنك ترافق جورج .. أليس كذلك ؟ . قال لانيا :

– أجل إننا نتجول ونطوف في كل الأمكنة .

– أحياناً يحدثك جورج عن أمور لا تفهمها ، أليس كذلك ؟ . قال ذلك وانحنى وجعل هيئة لانيا ملء عينيه .

– أجل هكذا .. أحياناً .

– إنه يستمر في الحديث ولكنك لا تعي منه شيئاً ..

– هكذا أحياناً .. وليس دائماً . مال كروكز عن حافة سريره وقال :

– لست من زنوج الجنوب .. لقد ولدت هنا في كاليفورنيا .. كان والدي يربي الدواب ، وكانت له أرض مساحتها بحدود خمسة هكتارات ، وكان الأطفال البيض يؤمون دارنا بقصد اللهو واللعب .. كان بينهم أطفال مهذبون جداً .. كان أبي يشمئز من ذلك الوضع .. وبعد أمدٍ طويل أدركت

لماذا لم يكن أبي يضمر وداً لذلك المكان . توقف قليلاً ، وعندما استأنف الكلام كان صوته قد أضحى أكثر عذوبةً ورقة :

– لم توجد في تلك الأرجاء أسرة واحدة من أسر الزنوج ، وفي هذه المزرعة لا توجد – أيضاً – أسرة واحدة للزنوج .. في (سوله داد) وحدها أسرة (ضحك) .. إنني أتحدث فلا تعر بالاً إلى ذلك .. وهل المتحدث زنجي ؟ . سأل لانيا :

– متى تظنني قادراً على لمس هذه الجراء ؟ .

ضحك كروكز مرة أخرى وقال :

– أشياء كثيرة تُذكر أمامك ، والمرء يحسبك مأمون الجانب . ولا يخشى على أسراره أن تُنقل إلى الآخرين .. بعد أسبوعين سيشتد عود الجراء .. إن جورج محدّث لبق ومحنك ، وهو حين يكلمك لا تفقه من كلامه شيئاً (انحنى) .. لا تعر بالاً .. إنها أحاديث امرئٍ زنجيٍ وعاجز .. أي أنها أحاديث جوفاء .. ومهما كانت الأعذار فلا تدعها تُمح من ذاكرتك .. هذه ليست المرة الأولى التي تجري فيها مثل هذه الأمور .. إنها آلاف المرات التي يتحدث أحدهم ويتحدث ، ولكن الآخرين لا يسمعون أو لا يفهمون .. فلا تبالِ بذلك .. كل تلك الأحاديث جوفاء لا طائل منها .. المسألة الجوهرية هي محادثة الرجال .. وإلا فأمسك لسانك وأقصر وانتبذ مكاناً قصيّاً . وفي خاتمة المطاف لا تلتفت إليها .

ازداد حماسه فجعل يضرب بيده على ركبتيه واستمرّ يقول :

– يستطيع جورج أن يثرثر ويتكلم اعتباطاً ويلقي أحاديثه جزافاً .. فما ثمرة ذلك ؟ ما جدواه ؟ القضية الكبرى هي مقدرة المرء على التكلم .

توقف وقد رقّ صوته وشاعت فيه نبرة الصدق وقال :

– فلنفترض أنه تراجع .. ولنفترض أنه أقدم على الرحيل ، فماذا أنت صانع ؟ . قال لانيا صارخاً :

– لا أدري .. حقاً ما هي غايته ؟ إنك تكذب . إن جورج لن يرحل .

– قلت ذلك لأختبر رأيك .. سيذهبون بك إلى مصحّ المجانين ، وسوف يضعون طوقاً كطوق الكلاب حول عنقك .

رشق لانيا الرجل بنظراتٍ نارية وتحوّل إلى الرجل بغضبٍ غامر كالكارثة وسأله :

– من ذا الذي ألحق الأذى بجورج ؟ .

أحسّ كروكز بدنو الطامة ، ولكي يتّقي الشر تقهقر إلى الوراء وقال :

– إنه مجرد افتراض .. إن جورج بخير .. إنه كالبصل الأخضر ولا بدّ أن يعود . كان لانيا قد أقام فوق رأسه :

– ولماذا تفترض .. لا أريد أن يفترض أحد أن داهيةً نزلت بساحة جورج . قال كروكز في رقةٍ ووداعة :

– ربما تفهم الآن .. لك الآن رجلٌ اسمه جورج .. لكن افترض أنك وحيد ، وليس لك صاحب أو خدين ، وليس لك رفيق أو معين ، وافترض أنك زنجي ويُحظر عليك دخول غرفة للعب الورق ، وافترض أنك مرغم على

الجلوس هنا ومطالعة الكتب ... قد تستطيع تزجية وقتك حتى المساء في التعامل مع النعال .. ولكنك في المساء ستأوي إلى حجرتك ولن تجد أمامك تسلية سوى قراءة الكتب .. الكتب أيضاً لا تساوي شيئاً .. وأهم ما في الأمر هو الجوهر الحقيقي الكامن في الصداقة والاستمتاع بروحها . ولكي يحرر لانيا نفسه الوجلة من تبعة الخوف والهم قال بصوتٍ مرتعب :

– سيعود جورج .ز لعله عائد الآن .. فلأذهب لأرى . قال كروكز :

– لقد أردت أن أهوّل عليك الأمر .. لا شكّ أنه عائد .. لقد كنت أحدثك عن نفسي .. تخيّل شخصاً يبيت الليالي هنا يطالع الكتب والأسفار ويفكر .. يفكر أحياناً في عروسٍ كاليمامة .. ولكن أيٌّ تفكير ذاك ؟ صائب أو غير صائب .. أصحيحٌ هذا أم لا ؟ .. إنه يفتقد ذاك الشخص الذي قد يلقي عليه مثل هذا السؤال .. وينظر إلى شيء ويراه بصورةٍ ما ولكنه غير واثق مما يراه ، ويفتقد ذاك الصديق الذي قد يلتفت إليه ليسأله : هل مثل ما أرى ؟. إنه لا يثق في شيء من الأشياء ، وهو مرتاب في كلّ الأشياء . ليس بين يديه معيارٌ للوهم أو الحقيقة .. كلُّ الأشياء عنده ضبابية مبهمة .. قد أرى هنا شيئاً من الأشياء ولكنني لا أدري إن كنت قد رأيته في يقظتي أو في منامي، فلو كان إلى جانبي ذاك الذي أفتقده لأنبأني بأن ما رأيته كان حلماً من الأحلام ، وإذ ذاك كنت سأنقطع عن التفكير .. لكنني – الآن – لا أعرف .

يجلس كروكز في الركن الآخر من الغرفة وينظر من خلال النافذة .

قال لانيا بقلبٍ مفعمٍ بالالتياع :

- لن يذهب جورج إلى أي مكان .. لن يدعني وحدي . أنا أعلم أن جورج لن يقدم على أمرٍ كهذا .

تابع السائس كمن انتشى بأوهامه واستلبه الخيال :

- أذكر أنني حين كنت صغيراً أقيم في مزرعة والدي للدواجن ، وكان لي شقيقان يلازمانني كظلي ولا يكادان يفترقان عني ، وكنا جميعاً - نحن الثلاثة - نقيم في غرفةٍ واحدة وننام على سريرٍ واحد .. كنا نقتني قطعة أرض مزروعة بأشجار التوت ومرجاً أخضر زُرع بالبرسيم .. وفي آناء الضحى كنا نسرّح فيه الدجاج .. كان شقيقاي يحومان حول المرج ، ويعتنيان بشؤون دجاجاتنا .. آه كم كانت بيضاء تلك الدجاجات . رويداً .. رويداً .. بدأ لانيا ينصب أذنيه ويصيخ السمع إلى ما يقال . ثم سأل :

- قال لي جورج : « سيكون لدينا البرسيم والأرانب » .

- أية أرانب ؟ .

- ستكون لدينا أرانب وأرض للتوت الإفرنجي .

- هل أنت مجنون ؟ .

- لست مجنوناً .. إنني أقول الحقيقة ، ولئن كنت في ريب فاسأل جورج . نظر إليه كروكز نظرةً مشفوعةً بالازدراء والاستصغار وقال :

- أنت مصابٌ بالخبال ، لقد رأيت جميع أولئك الذين مرّوا من هنا أو جاؤوا إلى هذه المزارع .. كانوا يحملون على ظهورهم الحقائب وفي أذهانهم نفس هذه الأفكار الجنونية .. رأيت المئات منهم .. يأتون .. وعندما ينهون

العمل أو ينتهي عملهم ، يمضون وفي عقل كل منهم صورة لمزرعة كهذه .. ذاك حلم كالحلم بالفردوس ، كلٌ يريد أن يصبح صاحب أرض .. لقد قرأت – هنا – جملة من الكتب .. لكن أحداً منهم لم يصبح – يوماً ما – صاحب أرض ولم يدخل أحد الفردوس .. كانوا يلهجون ويكثرون من ذكر أحلامهم ولكن تلك الأحلام تظل رهن الفكر ولا تتجاوزه .

توقف ، ونظر باتجاه الباب المفتوح ، كانت الخيول تتصرف وتتحرك حركات غير مألوفة .. كانت الأعنة الحديدية تصدر أصواتاً زاجلة مُرنّة ، وكان أحد الأحصنة يصهل . قال كروكز :

– لا بدّ أنّ هناك طارقاً . ربما كان سليم ذاك الطارق ، فإن سليم يدأب على زيارة الإسطبل في الليل مراراً .. إن سليم حوذيٌ رائع .. حريص على دوابه . ثم نهض بتثاقل من الباب وقال :

– أهذا أنت يا سليم ؟ . غير أن الجواب صدر بصوت جاندي :

– لقد ذهب سليم إلى المدينة .. ولكن انتبه .. ألم تشاهد لانيا ؟ ذاك الفتى الضخم ؟ أجل ألم تجده هنا أو هناك ؟ . قال كروكز مبتسراً :

– إنه هنا . عاد وتمدد على سريره .

وقف جاندي إزاء الباب يحك يده المبتورة ويجيل الطرف في الغرفة طرفاً لا يكاد يبصر جراء الضوء ويحجم عن الدخول . قال :

– هل أحدثك في أمر يا لانيا ؟ لقد أجريت حساباً بشأن الأرانب . فصرخ كروكز غاضباً :

– ادخل إن شئت . توقف جاندي وقال :

– لا أدري إن كنت ترغب في ..

– هيا .. ادخل يا عزيزي .. إذا كان الآخرون يستطيعون الدخول فلماذا لا تدخل أنت أيضاً ؟ .

لم يكن كروكز قادراً على كتمان سعادته . وتحت ستار الغضب دخل جاندي الغرفة ، ولكنه ما زال مذعوراً فقال لكروكز :

– هذا مكانٌ مريح .. إن وجود غرفة للمرء مسألة ملحة وضرورية . إنه أمرٌ سار ومبهج . فقال كروكز :

– حقاً .. وهذا الروث الذي يلطّخ النافذة .. وهل هناك مكان أفضل من هذا المكان ؟ . شارك لانيا في الحديث :

– لقد تحدثت عن الأرانب ؟ .

استند جاندي إلى الجدار بجانب النير المعطوب وحكّ يده المبتورة :

– إنني موجود هنا منذ زمنٍ بعيد .. وكروكز أيضاً يعيش هنا منذ عهدٍ بعيد .. وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها غرفته . تكلم كروكز :

– إن الرفاق يأنفون من دخول غرفة زنجي .. لم يحضر إلى هنا سوى سليم والمعلم. انحنى لانيا باتجاه العجوز :

– ماذا كنت تقول بصدد الأرانب ؟ .

– لقد أجريت جميع الحسابات .. وسوف نجني منها أرباحاً طائلة إن عرفنا طريقة تربيتها . قال لانيا :

– أنا الذي سيرعاها .. وأنت أيضاً ستهتم بالأرانب .. لقد أخبرني جورج بذلك .. لقد وعدني أن ..

قال كروكز محتداً :

– عبثاً تصدمون رؤوسكم بمثل هذه الأحاديث أيها الأولاد .. إنكم تزجون وقتكم وحسب ، ولن تكونوا أصحاب أرض في يوم من الأيام .. ستقضي كل أيام حياتك خادماً هاهنا لقد رأيت من أشباهكم الكثيرين .. وقد كانوا يعمدون إلى الرحيل بعد أسابيع قليلة .. وكل ما نستطيع فهمه هو أن أوهام امتلاك مزرعة تعشش في ذهن كل فرد منكم .. لكن أحداً منكم ومنهم لم يمتلك مزرعة وخاب رجاؤهم .

قال جاندي وهو يكبت غيظه :

– لا تحزن أبداً .. نحن سننفذ هذا المشروع .. لقد قال جورج بأن ماله موجود . قال كروكز :

– أحقاً ؟ حسناً .. أين يكون جورج الآن ؟ من يدري في أي ماخور من مواخير المدينة يعربد الآن ؟ .. إن أموالكم تهدر هناك . لقد رأيت الكثيرين من أمثاله .. عرفت كثيرين يحملون في رؤوسهم الحلم بمزرعة ، ولكن حلمهم لم يتحقق وظلّ وهماً من الأوهام . قال جاندي بصوتٍ عالٍ :

– كل امرئٍ يتمنى ذلك .. ومن ذا الذي لا يريد أن يكون صاحب أرض .. إن الأرض متى كانت تحت حوزتك عشت فيها رخيّ البال ، ولن تجد من يطردك منها .. أنا لم أمتلك مثل هذا المكان . لقد حرثت وزرعت

لكل الأسر والعائلات هنا ، ولكن تلك البذور لم تكن لي ، وعندما حصدتها لم يكن لي من الغلال نصيب . ولكننا سننهض بهذا المشروع .. إن جورج لم يصطحب معه مالاً .. أموالنا وديعة في المصرف .. أنا وجورج ولانيا – نحن الثلاثة – سيسكن كل منا غرفةً مستقلة ، وستكون لدينا بعض الأرانب ، والدجاج وكلب .. سنزرع الذرة الطرية .. وربما اقتنينا بقرة أو عنزة . هو نفسه ذهل أمام تلك اللائحة التي أسسها في فكره فتوقف . سأله كروكز :

– قلت إن المال متوفر ؟ .

– أجل .. النصف الأعظم متوفر ، لا ينقصه إلا النزر اليسير ، وفي غضون شهر واحد سندّخر المال الباقي .. إن المزرعة التي نزمع شراءها شاهدها جورج . وضع كروكز يده على فقرات ظهره ومسدها وقال :

– لم أعثر حتى الآن على شخص نجح في هذا المسعى .. رأيت أناساً جنّ جنونهم في هذا السبيل .. كانت أموالهم تنهب في بيوت الدعارة أو في حفلة من حفلات اليوم الحادي والعشرين من الشهر ، وتصبح أثراً بعد عين . صمت قليلاً ثم استرسل :

– إن كان بحاجة إلى عامل مجاني أو إلى أجير مقابل قوت يومه فأنا مستعد للحضور وتقديم العون .. ومتى شئت استطعت العمل كالخنازير .

– أيها الأولاد .. ألم يشاهد أحدٌ منكم جارلي ؟ .

استدار الجميع بهاماتهم إلى ناحية الباب .. كانت زوجة جارلي تنظر إليهم . كانت قد أفرطت في وضع المراهم والمساحيق .. كانت شفتاها تفترّان قليلاً ، وكأنها وصلت لاهثة وهي تعدو . قال جاندي بوجهٍ عابس :

– إن جارلي لم يحضر إلى هذا المكان .

لم تتحرك المرأة من مكانها وهي تبتسم لهم وتحكّ بظفر إحدى يديها أظافر السبابة والإبهام في اليد الأخرى .. وتنقل نظراتها من أحدهم إلى الآخر. وأخيراً قالت :

– لقد تركوا هنا كل الذين لا ينفعون للعمل .. يخيّل إليكم أنني أجهل إلى أين ذهبوا .. جارلي أيضاً موجود هناك .. إنني أعرف جيداً إلى أين ذهبوا .

كان لانيا يستمع إليها مشدوهاً فاقد الرشد ، ولكن جاندي وكروكز اللذين فرّت عنهما فرحتهما لم يكونا يرغبان في التقاء نظراتهما بنظراتها . قال جاندي :

– إن كنت تعلمين أين مكانه ، فلماذا تأتين للسؤال عنه ؟

أجابت المرأة وقد تهلل وجهها ونظرت إليهما :

– وما الغرابة في ذلك ؟ إنني حين أختلي برجلٍ وحيد أجيد التعامل معه .. ولكن طوبى لذاك الذي يستطيع انتزاع كلمة من أفواهكم حين تكونون مجتمعين .. ولكنكم تظلون تهمسون وتهمهمون .

أرخت أصابعها ووضعت يديها على ردفيها :

– كلُّ منكم أشدُّ جبناً من صاحبه .. إنكم مرعوبون خشية أن يغتابكم أحد أو يطلق لسانه في النيل من كرامتكم . بعد برهة قال كروكز :

– يحسن بك أن تعودي إلى بيتك ، فليس في نيتنا أن نستجرّ المتاعب لأنفسنا .

– ولِمَ أجلب لكم المتاعب ؟ أتظنون أنني لا أميل أحياناً إلى التحدث إلى الآخرين ؟ أتعتقدون أن الجلوس في البيت على انفراد كالبومة أمرٌ ممتع؟.

ألقى جاندي يده المبتورة على ركبتيه وفركها باليد الأخرى ثم انفجر قائلاً :

– لكِ بعل .. فلماذا تلاحقين الرجال الآخرين وتسببين لهم المآزق ؟.

اهتاجت المرأة :

– لي بعل .. وكلكم تعرفون جوهره .. إن شغله الشاغل هو إلقاء اللوم على غيره .. ويخصُّ نفسه بالمديح .. إنه لا يحب أحداً .. أتحسبون أن المرء في هذا البيت الذي لا يساوي شروى نقير يجد راحة ؟ .. وهل تجدون متعة في الاستماع إلى جارلي وهو يتحدث عن كيفية هجومه على الخصم بالقبضة اليسرى في بادئ الأمر ، ثم إتباعها بالقبضة اليمنى .. وكيف يعدُّ من واحد إلى اثنين فإذا خصمه صريع ملقى على الأرض ؟ .

توقفت وغابت عن محياها إمارات الغضب واستعدت للإصغاء وقالت:

– أصدقوني القول .. يد جارلي ماذا دهاها ؟ .

ران صمتٌ ثقيل .. فاختلس جاندي النظر إلى لانيا ثم سعل وقال :

- ماذا دهاها ؟ .. لقد أصابتها الآلة ببعض الأضرار .

حدّقت فيه المرأة برهة ثم انفجرت ضاحكةً :

- أيها الأفّاك .. لا تحاول خداعي .. لا بدّ أن جارلي كان يرغب في اصطناع مأثرة عظيمة .. سقطت يده بين الآلة .. أيها المدعي المتعجرف .. ولكن من الذي حاسبه وكافأه هذه المكافأة العظيمة ؟ . كرر جاندي بصوتٍ خافت وكأنه يحدّث نفسه :

- لقد سقطت يد بين الآلة . قالت المرأة بازدراء :

- لقد فهمنا .. فهمنا .. أنتم أيضاً تستطيعون تبرئته ، فهل يضيرني ذلك ؟ .. انظروا إلى هؤلاء الساذجين ، إنهم يحاولون مخاتلتي . ماذا تحسبونني ، هل تحسبونني مكنسة بيت ؟ .. سأقول لكم شيئاً .. لو شئت لكنت الآن فنانة في مسرح .. اقترح عليّ بعض الفنانين أن يسند إليّ دوراً في السينما . كانت على وشك أن تختنق من شدة غيظها وتابعت :

- الناس جميعاً يقومون ببعض الأعمال عشية أيام السبت .. ولكن أنا؟ وأنا ماذا أصنع ؟ جلسة هنا مع حشد من السذج الغافلين .. أتبادل الأحاديث مع الحمقى والأغبياء .. مع زنجي ومعتوه وراعٍ موبوء بالقمل والبراغيث ، ومع كل ذلك ترونني قانعة راضية . إذ ليس هناك شخص آخر أفضي إليه بدخيلة نفسي .

فغر لانيا فمه وهو يصغي إليها .. خبأ كروكز نفسه خلف تلك الحسناء محررة الزنوج .. خرج جاندي العجوز عن طوره ، ونهض دفعةً واحدة ، فتحرك البرميل الذي كان يجلس عليه واستدار غاضباً :

– كفّي عن حديثك .. لا نرغب في حضورك إلينا .. كم مرة قلنا لك أن لا تعودي إلى هنا .. اسمعي : إنك مخطئة تسيئين إلينا بتفكيرك هذا .. ولو كنت على ذرةٍ من الوعي والإدراك لأدركت أننا لسنا من ذلك النمط الداعر الأهوج .. افرضي أنك ألقيت بنا في العراء وطردتنا من هذه المزرعة ، فهل تحسبيننا سنجري لاهثين على الطرقات والدروب بحثاً عن مثل هذا العمل الوضيع لنتقاضى في اليوم خمسة وعشرين سنتاً ؟ هل تظنين أن هذه المزرعة عشنا ولا نستطيع عنه .. ومن ذا الذي يستطيع أن يقسرنا على البقاء هنا .. لنا بيت .. ولنا دجاج .. وكذا لنا أشجار الفاكهة .. مزرعتنا أبهى وأجمل ألف مرة من هذه المزرعة .. ولنا خلاّن وأصدقاء .. أجل لنا خلاّن .. لعلنا كنا في يومٍ من الأيام خائفين أن نُطرد من هذا المكان .. لقد ولّت تلك الأيام الى غير رجعة وأدبر زمن الهلع والخوف .. لنا أرض ولنا أموال فمتى تأزمت أمورنا وساءت أحوالنا وضاقت بنا السبل لجأنا إلى هناك .

ضحكت زوجة جارلي وقالت تستهزئ به :

– ثرثر .. لقد عرفت كثيرين من أشباهكم .. لو وجدتم في جيوبكم عشرين سنتاً لكنتم الآن تهيمون في المدينة .. أو كنتم تحسون كأسين من (الويسكي) ثم للعقتم ثمالة كؤوسكم . إنني أعرف من أيّ طراز أنتم .

احمرّ وجه جاندي .. ثم ثابت إليه رباطة جأشه ، واستحوذ على مشاعره ، وقبل أن تختتم المرأة خطابها قال بهدوء :

– كان علي أن أفكر .. ولكن ألا تستطيعون أن تصرفوا عنا شركم .. ليس بيننا وبينكم أحاديث أو حوار .. ماذا نملك وماذا لا نملك فنحن أدرى به .. وإن كنتم تعرفوننا أو لا تعرفوننا فهذا لا يضيرنا .. لهذا نطلب إليك بإلحاح أن تغادري هذا المكان وفي ذلك الخير كله .. ومهما يكن من شيء فإن جارلي قد لا يرضيه أن يرى زوجته بين طائفة من الماجنين الخليعين .

أجالت المرأة طرفها بين الجميع .. لكن أحداً لم يبالِ بها . فأطالت التحديق في لانيا ، فارتبك لانيا وأطرق برأسه ، فقالت المرأة دفعةً واحدة :

– من ذا الذي مزّق وجهك ؟ .

نظر لانيا إلى وجهها نظرة من ارتكب ذنباً وقال :

– من ؟ هل تقصدينني ؟ .

– أجل .. أقصدك . اختلس لانيا النظر إلى جاندي عسى أن ينجده .. ثم نظر إلى ركبتيه . ضحكت زوجة جارلي :

– لقد اتّضح الأمر .. الآلة .. سأحدثك فيما بعد .. إنني مغرمة بالآلات . تدخل جاندي وقال :

– دعي هذا الفتى بسلام .. لا تتدخلي في شؤونه ، سأبلغ كلماتك إلى جورج .. إنه لا يسمح لك أن تخالطي لانيا . فسألت :

– ومن هو جورج ؟ هل هو ذاك الفتى القميء الذي حضر معك ؟ .

ضحك لانيا وقال :

– أجل .. إنه هو .. وهو الذي سيأذن لي بتربية الأرانب .

– كفى .. إن كان كل همّك الأرانب ، فأنا أيضاً أستطيع أن أشتريها لك . نهض كروكز عن سريره ووقف إزاء المرأة وقال بكل هدوء :

– حسناً .. ليس من حقك أن تزوري غرفة رجل زنجي ، وليس من حقك الحضور إلى هنا لإثارة القلاقل والفتنة .. هيا اخرجي من هنا .. وإلا لأخبرت المعلم .. وسوف يسوؤه حضورك إلى الإسطبل .

نظرت إليه المرأة نظرة يقطر منها الاحتقار وقالت :

– اسمع أيها الزنجي .. إن لم تغلق فمك المنتن فستعلم بأية داهية سأرميك . نظر إليها برعب .. ثم ذهب إلى سريره وجلس عليه ، وانكمش بعضه على بعض .. دنت منه المرأة :

– إنك تعلم ما سأفعل بك .. أليس كذلك ؟ .

دنت منه المرأة وكلما ازدادت منه دنواً تضاءل جسمه وصغر حجمه ، فتباعد عنها حتى التصق بالجدار وقال :

– أجل .. أعلم .

– إذن فالزم حدك .. أستطيع تعليقك على فرع شجرة وبكل سهولة ولفرط ما تقلص جسم كروكز وتضاءل ، بدا وكأنه لا وجود له .. كان قد فقد شخصيته .. فقد رجولته .. فقد كل طاقة على التفكير والتدبر والتصدي لما

يجابهه .. كان كل شيء فيه قد اضمحلّ وتلاشى ، فقال بصوتٍ مضطرب متلجلج :

– أعلم يا سيدتي ..

ظلّت المرأة قائمةً عند رأسه تنتظر منه حركة لتعود إلى إذلاله فلم تبدر منه أية بادرة .. واستدار محاولاً إخفاء مواطن الضعف في جسمه اتقاءً لضربها. ثم التفتت إلى الرجلين الآخرين .

نظر إليها جاندي العجوز وقال بهدوء :

– إن أقدمت على أمرٍ كهذا فسوف نعلن بأنك تلفقين وتختلقين .

– ومن ذا الذي يصغي إليكم ، أو يبالي بكم . تعلمون جيداً أن أحداً لا يصدق أقوالكم . خفض العجوز رقبته وقال :

– هكذا إذن .. إن أحداً لن يصغي إلى أقوالنا . صرخ لانيا :

– فليحضر جورج .. فليأت جورج إلى هنا . دنا منه جاندي :

– لا تقلق .. لقد سمعت أصواتهم .. بعد دقيقة سيحضر جورج الى المهجع . ثم التفت إلى زوجة جارلي وقال :

– من الخير لك أن تذهبي إلى البيت .. فإذا ذهبت فلن نخبر جارلي بمجيئك إلى هنا .

شملته المرأة بنظرة باردة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وقالت :

– لا أعتقد أنك سمعت صوتاً . فقال جاندي :

– تصرفي بحكمة ، وإلا ألقيت نفسك في التهلكــة . التفتـت المـرأة إلى لانيا وقالت :

– لقد كنت سعيدة لأنك حطمت جارلي قليلاً .. كان أرعن وبحاجة إلى ذلك .. كم أتمنى أن أحطمه بين حينٍ وآخر . ثم خرجت من الباب واختفت في ظلمة الإسطبل صهلت بعض الخيول وتحركت سلاسـلها وخبطـت بعـض الأحصنة بسنابكها على الأرض ، فاستفاق كروكز من وضعه الوقائي وظهر من جديد وقال :

– قلت قبل قليل أن أصحابنا قد جاؤوا ، فهل هذا صحيح ؟ .

– لا شك أنه صحيح .. لقد سمعت أصواتهم .

– أما أنا فما سمعت شيئاً . قال جاندي :

– أغلق باب الحديقة وسرعان ما اختفت زوجة جارلي .. لا بـدّ أنـها مستعدة لمثل هذه الأمور .

لم يكن كروكز يرغب في التحدث عن ذلك ، فقال لهما :

– إن خرجتما من هنا فستكون أحوالنا بخير .. لست أدري إن كنـت أودُّ مكوثكما هنا أم لا .

– ليس من المهم إن كنت تود ذلك أم لا .. لا بدّ أن تراعى حقوق فتى زنجي . قال جاندي :

– ما كان ينبغي لتلك العاهرة أن توجه إليك هـذه الكلمـات النابيـة . قال كوركز مقطب الحاجبين :

- لا بـأس .. عندمـا حضرتمـا إلى هنـا وجلسـتما ، أنسيتماني أنـني زنجي .. كل ما قالته صحيح .

انبعثت أصوات السلاسل والصهيل ودوّى صراخ في الإسطبل :

- يا لانيا .. أما زلت في الإسطبل يا لانيا ؟ . قال لانيا صارخاً :

- لقد وصل جورج .. أجل .. جورج .. إني هنا .

وبعد برهة ظهر جورج أمام الباب ونظر في الأرجاء بكآبة وقال :

- ماذا تفعل هنا في غرفة كروكز ؟ وأي عملٍ لك هنا ؟ .

قال كروكز مؤيداً :

- قلت ذلك ولكنهما لم يعيراني بالاً .

- لماذا لم تطردهما ؟ . في هذه قال جاندي على عجل :

- يا جورج .. لقد أجريت الحسابات بالتفصيل .. لقد فكرت في كـلّ شيء .. وكيف سنجني أرباحاً من الأرانب . نهره جورج وقال :

- ألم أقل لك أن لا تبحث في هذا الموضوع .

أحسّ جاندي بالهوان وقال :

- لم أخبر إلا كروكز . قال جورج :

- هيا اخرجا من هنا أنتما الاثنـين .. آه .. ألا أسـتطيع أن أترككمـا لحظةً واحدة ؟ .

نهض جاندي ولانيا وسارا باتجاه الباب . صرخ كروكز :

- جاندي .

- نعم .. ماذا تريد ؟ .

- هل تذكر أنني قلت لك بأنني أستطيع أداء أعمالكم الهينة وتعشيب الحديقة . قال جاندي :

- أجل .. أذكر ذلك . فقال كروكز :

- إذن فلا تنسَ تلك الكلمات .. مثل هذه الأمور لا أقتنع بها .. لست راغباً في العيش في مكانٍ كهذا .

خرج الرجال الثلاثة إلى الدار ، وعندما عبرا الإسطبل سُمِع صليل السلاسل ولهاث الخيول . حدّق كروكز الذي كان جالساً على سريره في الباب دقيقة أو دقيقتين ، ثم مدّ يده إلى قارورة الزيت ورفع قميصه من الجهة الخلفية وسكب قطرات من الزيت على كفه الوردية ووضعها على ظهره وفركه .

الفصل الخامس

في ركنٍ رحيب من الإسطبل كنت تجد ركاماً مـن الحشـائش النـاضرة وعلى الحشائش مدقّة ذات أربع شعب ، متجهة نحو السقف .. كانت تلك الكومة من الحشائش الخضراء تبدو كهضبـة تمتـد إلى الناحيـة الأخـرى من الحشيش ، وكان الحشيش قد تراكـم علـى جـانبي المعـالف وظـهرت رؤوس الخيول من الشبكة الحديدية .

في يومٍ من أيام الأحد – بعـد الظـهر – كـانت الأحصنـة تتنفـس مـن مناخيرها وتلملم بقايا الحشيش المتفتت .. كانت تتمرغ بالأرض وتقضم خشب معالفها فتصلصل سلاسل أرسانها .. وأشعة شمس الأصيل تتوغـل إلى داخـل الغـرف مـن صـدوع في الجـدران ، وحلقـات مـن الضـوء تسقط علـى ركـام الحشيش، وطنين الذباب يعمّ الأرجاء في ساعات ما بعـد الظـهر الخاملـة .. وفي الخارج كانت أصوات أولئك الذين يمارسون اللعب (بالنعال) وأصـوات (النعال) المصطدمة بالأوتاد الحديدية وأصوات المشجعين والمستهزئين بعضـهم ببعض تصك الآذان ، وفي داخل الإسطبل يرين السكون والحرّ والخمول .

لم يكن في الإسطبل سوى لانيا ، كان جالساً فوق صنـدوق فـارغ علـى الحشيش في الجهة التي لم تصل إليها الحشائش . ينظر إلى جرو نافق متمدد أمامه .. أطال النظر في الجرو ثم مدّ يده ولمسه .. تلمّـس خطـم الجـرو حتـى انتهى إلى ذيله . فعل ذلك وهو يحدث الجرو :

- لماذا تموت ؟ ألا تضاهي فأراً صغيراً .. إنني لم أداعبك كثيراً . رفع رأس الجرو وتطلع إلى وجهه وقال :

- إن علم جورج بموتك فلن يسمح لي بتربية الأرانب .

أحدث حفرة تحت الحشيش ووضع فيها الجرو ، ثم غطّاه بالحشيش وأخفاه ، ولكنه لم يستطع أن يكفّ بصره عن التطلع .. وحدّث نفسه :

- هل أذهب وأخفي نفسي بين الأغصان .. لا .. لا .. هذه ليست خطيئة كبيرة .. ليست كبيرة أبداً .. سأقول لجورج بأنني عثرت عليه نافقاً.

أخرج الجرو من تحت الحشيش وعاينه .. لمسه ابتداءً بأذنيه وانتهاءً بذيله .. ثم استأنف حديثه وهو في أشد حالات البؤس والشقاء :

- مهما يكن من شيء فإنه سيعلم .. إن جورج يعرف كل شيء .. سيقول لي أخيراً : « هذه هي فعلتك .. ولن تستطيع أن تخدعني » .. ثم سيقول : « هذا هو أنت .. إنك لن تستطيع تربية الأرانب » .

احتدم غيظاً وصرخ :

- لماذا تموت ؟ ألا توازي فأراً صغيراً ؟ .

تناول الكلب وقذفه بعيداً ، وأدار له ظهره وجلس رافعاً ركبتيه وقال:

- إذن لن أربي الأرانب .. لن يأذن لي جورج أن أعتني بالأرانب .

كان يرتجف ويهتز من الغضب .

في الخارج اصطدمت نعل بالوتد الحديدي فانبعث دويّ هائل .

نهض لانيا وجلب الجرو ووضعه فوق الحشيش ، ثم جلس وطفق يلمس الحيوان ويخاطبه :

– إنك لم تكبر بعد .. قالوا بأنك ما زلت صغيراً ، ولكنني لم أكن أعرف أنك ستموت بهذه السرعة .

وضع أصابعه فوق أذن الجرو المتغضنة وقال :

– لعل جورج غير مبالٍ بذلك .. إنه لم يكن يحب شيئاً كهذا .

في الركن الأخير ظهرت زوجة جارلي وهي تقترب ببطء ، فلم ينتبه لها لانيا . كانت ترتدي ملابس قطنية ذات ألوان زاهية ، وفي قدميها حذاء مزخرف بريش طائر النعام ووجهها مطلي بالدهون والأصباغ ، وكان شعرها مجدولاً كمألوف عادتها ، وحين رفع لانيا رأسه ألفاها قائمة لديه ، فذعر وأسرع في إلقاء حزمة من الحشيش على الجرو ، وجعل ينظر إلى المرأة بوجهٍ عابس . قالت :

– ماذا يوجد هناك يا عزيزي ؟ . نظر إليها لانيا بقسوة وقال :

– إن جورج لا يريد أن يراني معك ، ويقول لي : لا تتحدث إليها .. ولا تفعل شيئاً . ضحكت المرأة :

– وهل يحدثك جورج دائماً في الأمور التي يجب أن تفعلها والأمور التي لا يجب أن تفعلها ؟ .

– إن شاهدني معك فلن يسمح لي بتربية الأرانب .

قالت المرأة بصوتٍ خافت :

– إنه يخشى أن يغضب جارلي وهـذا هـو سبب منعـه .. ولكـن ذراع جارلي مضمدة الآن .. ومتى اعترضك جـارلي حطمـت ذراعـه الأخـرى .. قـد تعتقد بأنني خُدعت بتلك الآلة الوهمية ؟..

لم يكن لانيا يقترب منها وقال :

– لا .. لا .. لا أريد التحدث معك .

جلست المرأة القرفصاء بالقرب منه وقالت :

– أصـغِ إليّ .. إن الجميـع منـهمكون الآن في لعبـة (النعـال) .. إن الساعة ما تزال الرابعة .. إنهم مندمجون في اللعب .. ولن يخرج أحد منـهم إلى أي مكان آخر .. فلماذا لا نجلس ونتجاذب أطراف الأحاديث ؟ .. ليس لي من أجلس معه وأتحدث إليه .. لقد اهترأت من جراء الوحدة .

– لا .. لا أستطيع التحدث معك . قالت المرأة :

– لقـد دمّرت الوحـدة حيـاتي .. إنـك تسـتطيع محـاورة خلانـك وسجرائك .. ولكنني لا أجد من أناجيه سوى جارلي ، فإذا تحدثت إلى سواه غضب وطاش عقله. فإن كنت في موقفي ولم تستطع التحدث إلى الآخريـن .. فهل يبقى لديك جلد أو تحمل ؟ .

– إن حديثي إليك مصيبة .. لأن جورج يخشى أن تحلّ بي نكبة .

غيّرت المرأة مجرى الحديث :

– ما ذاك الذي تخفيه هناك ؟ .

وفي لحظة واحدة تذكر لانيا كل شجونه وأتراحه ، فقال في لوعةٍ وأسى :

– إنه جروي .. وماذا في ذلك ؟ إنه جروي .

أزاحت المرأة الحشيش الذي كان يغطي الجرو :

– آه .. إنه نافق . قال لانيا :

– لقد كان صغيراً .. كنا نلعب معاً .. كان يداعبني ويمازحني بعضٌ خفيف .. ربتُّ عليه فنفق . قالت المرأة تواسيه :

– ولماذا تأسف عليه .. إنه جرو من جراء الكلاب .. وماذا سيحدث ؟ إن اقتناء جرو آخر ليس أمراً ذا بال .. جراء الكلاب تملأ كل الأمكنة .

قال لانيا بصوتٍ بائس :

– ليس إلى هذا الحد .. ولكن المهم أن جورج لن يأذن لي بتربية الأرانب .

– ولماذا لن يأذن لك ؟ .

– قال لي مرة : « إن عدت إلى اقتراف خطيئة أو ارتكاب ذنب فلن أدعك في رعاية الأرانب » .

ازدادت المرأة منه دنواً ، وقالت بصوتٍ مشوب بالتزلّف :

– لا تخف من التحدث معي .. أصغِ إلي .. الجميع في الخارج يصرخون ويصخبون .. إن الذي يفوز في هذه المباراة يربح أربع دولارات ولن يذهب أيّ منهم إلى أي مكان قبل انتهاء المباراة .

قال لانيا محاذراً :

– إن رآني جورج أتحدث معك لوبخني .. لقد نصحني بأن لا أكلمك.

غضبت المرأة وقالت :

– حسناً .. هل أسأت إلى أحد ؟ أليس من حقي أن أثرثر بكلمتين مع رجل؟ من أين لهم أن يعرفوني يا عزيزي ؟ إنك فتى هادئ .. إن تحدثت معك فماذا سيجري ؟ .. أنا لا أرتكب جريرة حتى ..

– يقول لي بأنك ستجرين لنا البلاء .

– قالوا ذلك أيضاً ؟ .. وأي ضرر أستطيع أن ألحقه بك ؟ إن الحياة التي أحياها هنا لا يلتفت إليها الآخرون .. لست موائمة لهذا المكان .. ولكن ما العمل ؟ كنت أستطيع أن أكون امرأة مشهورة ، ذائعة الصيت – قالت ذلك بصوتٍ حزين – وربما أصبحت شهيرة في المستقبل .

وخشية أن يداهمها أحد وينتزع منها مستمعها أفرغت مكنون نفسها :

– كنت أقيم في (ساليناس) وعندما غادرت من هناك كنت ما أزال صبية ، وذات يوم حضر إلى المدينة مجموعة من نجوم السينما ، عرفت منهم ممثلاً قال لي: « إن شئت استطعت الانضمام إلى مجموعتنا » ، لكن أمي لم تأذن لي ، وقالت لي : « إنك مازلت يافعة في الخامسة عشرة » ، وعلى الرغم من صغر سني كان الرجل قانعاً وقال : « هذا لا يضير .. » ، ولو أنني قبلت العرض لكانت حياتي الآن راضية هانئة .

كان لانيا يلمس الجرو ويقول :

– سنشتري مزرعة صغيرة .. وسنعتني بالأرانب .

لم تمنحه المرأة الفرصة ليتابع كلامه وأسرعت في التحدث عن حياتها :

– مرة أخرى عرفت نجماً من نجوم السينما ، وفي مدينة (ريفيريا) راقصته في ملهى *(Dance Palace)* دانس بالاس . قال لي : « سأصنع منك ممثلة سينمائية .. لقد جئتِ إلى الدنيا وأنت ممثلة » .. ووعدني أن يرسل لي كتاباً حال عودته إلى هوليوود .

ولكي تتأكد المرأة من مدى وقع حديثها على لانيا ، اقتربت منه ونظرت إليه وقالت :

– ولكنني لم أستلم تلك الرسالة .. لا شك أن الرسالة وقعت في يد والدتي .. يخيل لي أنها فقدت الرسالة .. ألا تعتقد أنني كنت في طريقي إلى الشهرة .. كنت سأتسنم مكانة مرموقة .. وفي الوقت نفسه ما كنت لأعيش في مكانٍ عفن تسرق فيه رسائلي .. ولهذا السبب تزوجت جارلي .. التقيت به ذات ليلة في (ريفيريا) ، في دانس بالاس .. هل تصغي إلى ما أقوله لك ؟ .

– أنا ؟ .. أجل ..

– حتى هذا اليوم لم أفضِ بهذا السر إلى أحد .. بما كان عليّ أن لا أبوح أبداً .. إني لا أضمر وداً لـ جارلي .. إنه امرؤٌ رديء .

وإذ أعلنت له عن دخيلة نفسها دنت منه وجلست إلى جانبه وقالت:

– كنت أستطيع أن أتحول إلى نجمة سينمائية .. كنت أستطيع أن أرفل في ثياب فاخرة .. فاخرة مثل ثيابهن تماماً .. كنت سأقيم في تلك الفنادق الفارهة .. كانوا سيقومون بتصويري ، وفي العشية الأولى من عرض (فيلمي) كنت سأتحدث عبر المذياع لأنني البطلة في الفيلم ، وما كنت سأنفق درهماً واحداً .. كنت سأرفل في مثل تلك الثياب الزاهية التي ترتديها الممثلات . قال لي الرجل : « لقد جئت إلى الدنيا وأنت ممثلة » .

توجهت إلى لانيا كي تؤكد له أنها تستطيع أداء الأدوار في الأفلام ، فحركت يديها وكتفيها وإصبعها (الخنصر) متجهةً إلى ناحية زندها .

تنفس لانيا تنفساً عميقاً .. سمعت قرقعة نعل أصابت الوتد الحديدي فرنّت وتعالت أصوات التشجيع . قالت زوجة جارلي :

– لا بدّ أن أحدهم قد أدخل النعل في الوتد الحديدي .

كانت الشمس كلما انحدرت تغيرت ألوان الضوء .. تجاوزت أشعة الشمس الجدار ووصلت إلى رؤوس الخيول ومعالفها . قال لانيا :

– ليتني أذهب وأطرح هذا الكلب في الخلاء .. فقد ينتبه جورج إلى ذلك .. وعندئذٍ لن يحول بيني وبين تربية الأرانب أحد .

غضبت زوجة جارلي غضباً شديداً وقالت :

– ألا تفكر في شيء آخر غير الأرانب ؟ .

استمرّ لانيا في ثبات :

- ستكون لنا مزرعة صغيرة .. سيكون لنا منزل وحديقة صغيرة ، وستكون لنا أرض تزرع بالبرسيم .. سنزرع البرسيم للأرانب ، سأتناول غريرة (جولقاً) وسأقطف البرسيم وأملأ الغريرة ثم أعود بالبرسيم إلى الأرانب .

سألته المرأة :

- لماذا أراك هائماً بعشق الأرانب إلى هذه الدرجة ؟ .

ولكي يتوصل لانيا إلى اتخاذ قرار فكّر ملياً وأطال التفكير ، ثم دنا من المرأة وقال :

- إني مغرم بلمس الأشياء الجميلة .. رأيت مرة في سوق الأرانب أرانب ذات فرو طويل .. طويل جداً .. يتوق المرء إلى لمسه .. كم كانت طريفة تلك الأرانب .. وإذا تعذّر علي لمس شيء يصلح للمس ، ذهبت فلمست الفئران بين حين وآخر .

تجنبته زوجة جارلي وقالت :

- هل بك مسٌ من الجنون ؟ .

قال لانيا بتصميم :

- لا .. أنا لست مجنوناً .. يقول لي جورج بأنني لست مجنوناً .. إني أحب لمس الأشياء الجميلة .. الأشياء الناعمة بأصابعي .

أفرخ روع المرأة قليلاً :

- كل امرئٍ يحب ذلك .. الكل يحبون ذلك .. إني مغرمة إلى حدود الجنون بلمس الحرير والقطيفة .. هل تريد أن تلمس القطيفة ؟ .

طار لب لانيا من الفرح وصرخ بسعادة :

– ماذا تقولين ؟ لقد كنت أحمل معي دائماً قطعة من القطيفة . ليتها كانت معي الآن . ثم اربدّ وجهه تحسراً وقال :

– لقد فقدتها .. لم أرها منذ زمنٍ بعيد . استهزأت زوجة جارلي :

– أنت مجنون ، ولكنك طفلٌ هادئ .. إنك كطفل كبير تماماً .. ولكن المرء يستطيع أن يفهم ماذا تبتغي .. إنني حين أرجّل شعري ألمسه أحياناً .. إنه كالقطيفة ، ولكي تريه كيف يكون ملمس الشعر تخللت شعرها بأصابعها وقالت :

– شعر بعض الناس خشن وقاس .. المهم أن شعر جارلي هو من هذا النوع .. شعره شبيه بالشوك .. لكن شعري رقيق وناعم كالقطيفة ، ولما كنت أسرحه دائماً فهو ناعم كل هذه النعومة . هيا ضع يدك هاهنا .. هنا تحديداً .. وانظر كم هو ناعم ، ولكن لا تربك ترتيب شعري .

ثم تناولت يده ووضعتها على شعرها فصرخ لانيا وقال :

– أواه .. كم هو لذيذ وناعم . ثم شرع يلمس شعرها بمزيدٍ من العنف، وهتف :

– أواه .. كم هو لذيذ وممتع .

– انتبه .. إنك تشعث شعري . وبعد ذلك صرخت المرأة بقوة :

– كفى .. كفى .. ستفسد شعري .

أدارت رأسها بحركة عنيفة .. شدد لانيا من ضم أصابعه ولم يترك شعرها . صرخت المرأة :

– دعني .. قلت لك دعني ..

كان قد جنَّ جنون لانيا .. ازرقَّ وجه المرأة فشرعت تصرخ .. سدَّ لانيا بيده الأخرى فم المرأة وأنفها ، وقال متوسلاً :

– ناشدتك الله كفي عن البكاء .. كفي عن البكاء .. سيغضب جورج إن سمعك .

انتفضت المرأة بين يديه بعنف .. وجعلت تخبط برجليها على الحشيش ترجو في ذلك خلاصها .. كانت تتمرغ .

بدأ لانيا يصرخ ذعراً وفزعاً وقال متضرعاً :

– ناشدتك الله .. لا تفعلي ذلك .. سيقول لي جورج : « لقد ارتكبت ذنباً مرة أخرى » ، ولن يأذن لي بتربية الأرانب . عندما أرخى لانيا يديه قليلاً .. صرخت المرأة بصوتٍ أجش ، فاهتاج لانيا وقال :

– كفى .. لا تصرخي هكذا .. ستسببين لنا المتاعب كما قال جورج ، فلا تفعلي ذلك .

كانت عينا المرأة قد جحظتا .. بتلك الطريقة كانت تصارع وتقاوم .. عندئذٍ رجَّها بقوة وقد طفح كيل غضبه وقال :

– لا تصرخي هكذا ..

تمدد جسد المرأة على الأرض كسمكة هامدة .. كان لانيا قد حطم عظام رقبتها . نظر لانيا إلى المرأة ، وبحذر شديد رفع يده عن فم المرأة ، لكن تلك المرأة لم تتحرك فقال :

– لا أنوي إلحاق الأذى بك ، ولكن إن ظللت تصرخين فسوف يغضب جورج غضباً شديداً . ولما لم تستجب المرأة .. ولم تتحرك .. انحنى عليها لانيا انحناءً كلياً ، ورفع يدها عن الأرض ثم تركها .

ظلّ حائراً فترة من الوقت ثم تساءل وجلاً :

– لقد أسأت .. لقد أسأت مرة أخرى .

ألقى بعض الحشيش فوق جثة المرأة بحيث يستر جزءاً منها . انبعث من الخارج صوت بعض الرجال ، وطنين نعلين ، عندئذٍ أحسّ لانيا بوجود أولئك الرجال في الخارج فتمدد على الحشيش ، وثنى ركبتيه وتنفس الصعداء وقال :

– لقد أتيت أمراً منكراً .. ما كان عليّ أن أفعل هذا .. سوف يغضب جورج .. قال لي جورج أن .. قال لي : « استمر في الاختباء بين الأدغال حتى أصل إلى مكانك » .. سيغضب الآن .. قال لي : « ستظل مختبئاً بين الأدغال حتى أحضر إليك » .

رنا لانيا مرة أخرى إلى المرأة الهالكة .. كان الجرو النافق ممداً بقرب المرأة .. حمل لانيا الجرو وقال :

– سأرمي هذا .. هذا أيضاً مزعج .

خبأ الجرو تحت معطفه وزحف على مؤخرتـه حتـى وصـل إلى جـدار الإسطبل ومن خلال أحد الصدوع نظر إلى جماعة اللاعبـين .. وأخـيراً خـرج بمزيدٍ من الهدوء من ناحية المعلف الأخير وغاب .

كانت أشعة الشمس قد بلغت الجزء الأعلى من الجدار ، وكان النور في الإسطبل قد بدأ يخبو ، وزوجة جارلي ممدة علـى ظـهرها والحشـيش يغطـي نصف جسمها . كان صمتٌ مطبق يخيم على الإسطبل ، ويرين على المزرعـة سكون القيلولة . وكان رنين النعال وأصوات اللاعبين قد خفت قليلاً ، وعلى الرغم من بقايا الضوء في الخارج كان الإسطبل يزحف نحو العتمة .. دخلـت حمامة من خلال الباب المفتوح المعدّ لإدخال التبن .. وبعد أن هامت وحلقت مرة أخرى في الغرفة ولّت خارجةً .

في نهاية الإسطبل ظهرت كلبة الرعـاة .. كـانت كلبـة ناحلـة هزيلـة متطاولة الجسم ، وقد تدلت أوطابها وتهدلت ، وحين اقتربت من الصنـدوق الذي يضم جراءها استنشقت رائحـة جثـة زوجـة جـارلي ، ومـن جـراء تلـك الرائحة قفّ شعرها واخشوشن ، فهرّت هريراً واهناً ، ثم وصلت إلى الصندوق وجثمت عند جرائها .

كانت زوجة جارلي ممـدة علـى الأرض ، وقـد غُطّي نصـف جثمانـها بالحشيش .. لم يكن بادياً على قسماتها ذاك التذمر والاحتجاج ، ولم تظهر عليه آثار للهمّ والكدر والمعاناة أو الوحشة والوحدة . كان وجهها قد أضحـى نقياً بريئاً رائع الجمال عذباً صافي الأديم ، وكانت وجنتاها المطليتان بضروبٍ

من المساحيق وشفتاها المصبوغتان توحي للناظر بأنها امرأة ذات روح مستغرقة في حلمٍ عذب . كانت ضفائر شعرها الناعمة قد تبعثرت من خلف رأسها على الحشيش، وبدت كالسحالي وقد انفرجت شفتاها قليلاً ، وارتسم على ثغرها شيء كالابتسامة .

استيقظ الزمن رويداً رويداً ، ودارت عجلته تستأنف الجولة متهادية خاملة ، بعدما كانت قد توقفت عن الدوران لحظاتٍ طويلة .

في الجهة الأخرى من المعالف ، كانت الخيول ترفس فتصلصل سلاسل الأعنّة . بدأت أصوات الرجال في الخارج تُسمع بمزيدٍ من الوضوح ، وفي الطرف الآخر ارتفع صوت جاندي العجوز :

– لانيا .. يا بني .. لانيا .. هل أنت هناك ؟ لقد أجريت الحساب .. انظر .. سأقول لك ماذا سنفعل ...

ظهر جاندي العجوز في الطرف الآخر من الإسطبل وهتف مرةً أخرى:

– لانيا . ثم توقف مجفلاً .. مرر يده المبتورة على وجهه الملتحي ، وخاطب زوجة جارلي :

– لم أكن أدري أنك هنا . ولما لم يسمع جواباً وثب إلى جانبها :

– نومك هناك ليس صحيحاً .. وبعد برهةٍ وجيزة وصل إلى المرأة : «واويلتاه .. » حكّ شعر لحيته ونظر فيما حوله ذاهلاً ، ثم وثب من مكانه وخرج .

استيقظ الإسطبل .. كانت الخيول تشــهق وتزفـر .. ترمـح وترفـس .. تأكل ما في المعالف من التبن .. ترنُّ أرسانها المتخـذة مـن السلاسـل ، وبعـد هنيهةٍ عاد جاندي ومعه جورج . سأله جورج :

– ماذا تبتغي مني ؟ . أشار جاندي إلى زوجة جارلي ، فقال جورج:

– ماذا دهاها ؟ .

دنا من المرأة وكرر ما قال جاندي : « واويلتـاه .. واويلتـاه » وجلـس إلى جانبها القرفصاء . وضع يده على قلبها ، وحين نـهض متباطئاً متثـاقلاً كان وجهه قد استحال إلى لوحٍ من الخشب .. وشرع ينظر بقسوة .

سأله جاندي :

– تُرى من الذي أقدم على هذه الفعلة ؟ .

نظر إليه جورج نظرةً جامدة وقال :

– ألم تعرف ؟ .

لم يتكلم جاندي .. وجورج الذي لم يسعه فعل شيء قال :

– كان علي أن أتوقع هذا ، من يدري ؟ فلعل ذلك قد مرّ بخاطري.

سأل جاندي :

– ماذا سنفعل الآن يا جورج ؟ ماذا سنفعل ؟ .

سكت جورج برهةً طويلة ولم يجب .

– في كل الأحوال لا بدّ من إعلام الآخرين ، لا بـدّ مـن إلقـاء القبـض على (الولد) وإيداعه السجن ، يجب علينا أن لا نترك له فرصةً للفرار .. يا للأحمق البائس سيموت جوعاً . حاول جورج أن يداري حزنه فقال :

– لو ألقينا به في غياهب السجن فلن يعاملوه بسوء .

قال جاندي بصوتٍ منفعل :

– علينا أن لا ندعه يهرب .. إنك تعرف جارلي .. سوف يعدمه جارلي .. سيسعى إلى قتله . نظر جورج إلى فم جاندي ثم قال :

– أجـل .. إنـك علـى صواب ، سـوف يسـعى جـارلي إلى قتلـه .. والآخرون سيجنّدون لذلك .

ألقى نظرة أخرى على زوجة جارلي .. عندئذٍ أبدى جاندي عن خوفه الأكبر :

– ألا نستطيع أنا وأنت شراء تلك المزرعة الصغيرة يـا جـورج .. مـاذا تقول يا جورج ؟ . ودون أن ينتظر جواباً طأطأ برأسه ، ونظـر إلى الحشـائش .. كان قد عرف الجواب . قال جورج متأنياً :

– لقد كنت أعلم .. كنت أعلم أننا لن نكون أصحاب تلك المزرعـة .. ولكن الإصغاء إلى حديثك كـان يطربـني ويثملـني .. حتـى أنـني في النهايـة صدقت هذا الوهم . قال جاندي مغتماً :

– إن هذا المشروع لن ينجز .. أليس كذلك ؟ .

قال جورج وكأنه لم يسمع شيئاً :

- سأمضي هذا الشهر ، وفي آخر الشهر سأتقاضى خمسين دولاراً ، وسأبيت الليل في ماخور حقير حتى الصباح . أو سأذهب إلى حانة وأمكث هناك وسينصرف الجميع وأظلُّ وحدي .. سأشرب ثم سأعود لأعمل شهراً آخر وأقبض خمسين دولاراً . قال جاندي :

- كم كان فتىً طيباً .. ولم يخطر لي على بال أنه سيقدم على هذه الفعلة . لم يكن جورج يقطع نظراته عن زوجة جارلي :

- لم يرتكب لانيا هذه الجريمة بدافعٍ شرير .. كان كل همه الإتيان بأعمال لا مغزى لها دون أن تنطوي على ذلك نية سوء أو إلحاق الأذى بالآخرين . نهض والتفت إلى جاندي :

- أصغِ إلي الآن .. فلنذهب لتنبيه الآخرين .. علينا الإمساك بالفتى وإحضاره إلى هنا .. وليس لنا من حيلةٍ أخرى .. هكذا سنحول بينه وبينهم، ولعلهم آنذاك لن يؤذوه . ثم تابع بإصرار وإيجاز :

- لن أسمح لهم أن يمسّوا لانيا .. أصغِ إلي الآن .. قد يشكُّ الآخرون أن لي ضلعاً في هذه الجريمة .. سأذهب إلى غرفتنا .. أما أنت فاخرج بعد دقيقتين وأعلم الآخرين .. وسوف أتصرف وكأنني لا أعرف شيئاً ولم أخبَر بالحقيقة إلا الآن .. هذا ما ينبغي أن تفعله أليس كذلك ؟ .. وهكذا سيتضح لهم أنني بريء مما حدث . قال جاندي :

- أجل يا جورج .. سأفعل ذلك بكل عزيمةٍ وصدق .

– حسناً .. عندئذٍ ستمهلني عشر دقائق ثم تخرج في لهفةٍ وعجل وتزعم أنك لم تشاهد المرأة إلا الآن .. إني ذاهب .

أسرع جورج في الخروج من الإسطبل وحدّق جاندي العجوز في جورج من وراء ظهره .. ثم حوّل نظراته الحائرة إلى المرأة . رويداً .. رويداً تطاول همه وازدادت أشجانه حتى طفحت وصارت كلاماً :

– آه .. يا ابنة العاهرات .. كنت لا تهدئين ، وأخيراً نلت جزاءكِ ماذا يهمك الآن ؟ .. كان الجميع يتوقعون أن ترتكبي خطيئة ، وفي كل الأحوال أنت لست سليلة أناس شرفاء .. أنت لا تساوين شيئاً يا ابنة الخنازير . تنفس من أنفه شهيقاً وزفيراً ، ارتعش صوته :

– كنت سأقوم بتعشيب الأرض .. وكنت سأغسل الصحون .

توقف ثم استأنف يكرر أحاديث السابقة :

– لو أن فرقة (للسيرك) حضرت إلى المدينة ، أو أقيمت مباراة بكرة السلة لذهبنا إلى هناك ، وما كنا نعير بالاً إلى الآخرين .. وكنا سنقتني الخنازير والدجاج ، ولأقمنا هناك للاستجمام في أيام الشتاء ونحن مطمئنون بالاً . ترقرقت عيناه بالدموع .. التفت .. حكّ ذقنه المشعثة بيده المبتورة وخرج من الإسطبل .

في الخارج انقطعت أصوات اللعب وتعالت أصوات الرجال .. كانوا يتناقشون ، ثم سُمعت أصوات أقدامٍ تجري . احتشد الإسطبل بالرجال وظهر سِليم .. كارلسون .. ويت .. وجارلي ، ولكي لا يلفت كروكز الأنظار إليه

انتبذ مكانه خلفهم .. كان جاندي يسير في مقدمتهم . كان جورج يرتدي معطفه الأزرق .. ويرخي قبعته السوداء على عينيه . كان الرجال يهرعون ويدخلون من خلف الإسطبل .. وفي الضوء المعلّق بالغسق التقت أنظارهم بزوجة جارلي .. توقفوا .. همدوا في أماكنهم كالصخور الباردة لا يتحركون ، وحدّقوا فيها .

اقترب سليم على حذر ووضع يده على رسغها يجسُّ نبضها .. لمس وجنته بأنامله النحيفة ، ثم نقل يده إلى رأسها الذي مال قليلاً ، ثم عاين عنقها .. وعندما نهض حفَّ به الرجال الموجودون هناك ، ثم انهار جدار الصمت . استعاد جارلي عزيمته دفعةً واحدة ، وقال :

– أنا أعلم من فعل ذلك .. إنه ذاك الحصان المارد .. لا ريب أنه هو الفاعل لا غيره .. لأن الجميع كانوا في الخارج يلعبون .

مرّت الدقائق فازداد ثورةً وانفعالاً :

– سأقتله .. سأذهب في الحال لأجلب بندقيتي وسأقتله .. سأقتل ابن العاهرة ذاك بيدي .. سأبقر بطنه .. هيا أيها الأولاد .. هلموا .

خرج مسعوراً من الإسطبل ، فقال كارلسون :

– سأذهب لإحضار مسدسي . ثم خرج مسرعاً .

التفت سليم إلى جورج متأنياً وقال :

– يبدو .. في الحقيقة .. أن الفاعل هو لانيا . لقد وجأ عنق المرأة .. هذه الفعلة لا يقدم عليها سوى لانيا .

لم يجب جورج وأطرق برأسه ، فمالت قبعته وغطّت عينيه وضاعت تحتها . تابع سليم :

- قد تكون هذه الحادثة شبيهة بتلك الحادثة التي جرت هناك .. التي حدثتنا عنها . أجاب جورج بالإيجاب بإيماءةٍ من رأسه . تأوّه سليم :

- لا بدّ من إلقاء القبض عليه .. ترى إلى أين سيكون قد فرّ ؟ . مرّت فترة طويلة دون أن ينبس جورج بكلمة واحدة :

- لا بدّ أن يكون قد اتجه إلى الجنوب . لقد جئنا من ناحية الشمال، ولهذه العلة لا بدّ أن يكون متوجهاً إلى الجنوب .

قال سليم مرة أخرى :

- مهما يكن من شيء فلا بدّ من الإمساك به . دنا منه جورج :

- ألا يستطيع أحد أن يجلب الفتى لإيداعه السجن هنا ؟ إنه غير واعٍ يا سليم .. إنه لم يكن ينوي شراً . قال سليم مصدقاً :

- ربما استطعنا ذلك .. لو أننا استطعنا منع جارلي من الخروج .. قد يحاول جارلي قتله .. فجارلي حاقدٌ عليه . ولنفترض أنهم أمسكوا به وشدوا وثاقه وزجّوا به في السجن ، فهذا أمرٌ مستهجن .

وصل كارلسون وهو يعدو وقال صارخاً :

- إن ابن العاهرة سرق مسدسي .. ولم أعثر على حقيبتي .

كان جارلي يعدو من خلفه يحمل بندقية بيده السليمة ، وقد هدأت ثورته :

– هل أنتم جاهزون أيها الأولاد ؟ لدى الزنجي بندقية فتسلّح بها يا كارلسون .. إذا أمسكت به فتمكن منه حتى لا يهرب مرةً أخرى . أطلق الرصاص على بطنه لإذلاله مرتين . قال ويت بلهجة ثائرة :

– ليس لي بندقية . قال جارلي :

– اذهب وأحضر معاون الشريف (آل ويست) .. هيا سر . ثم نظر إلى جورج في ارتياب وقال :

– هل ستأتي معنا ؟ . قال جورج :

– أجل .. سآتي .. ولكن أصغِ يا جارلي .. إن ذاك المسكين معتوه ولا يجوز قتله .. إنه لا يدرك ما يفعل ؟ . سأله جارلي :

– قلت إن قتله غير جائز ؟ لقد سرق مسدس كارلسون أيضاً ، ولا بدّ من قتله . قال جورج برقّة معترضاً :

– ربما أضاع كارلسون مسدسه .

– قال كارلسون إن المسدس كان موجوداً حتى هذا الصباح .

– لا .. لا .. إن مسدسي لم يسرق .

قال سليم بينما كان ينظر إلى زوجة جارلي :

– من الأجدر بك أن تمكث إلى جانب المرأة يا جارلي . احمرّ وجه جارلي ثم امتقع وقال :

– سأذهب .. سأقتل ذاك الوغد بيدي .. ولئن كانت إحدى يديّ معطوبة فلا بأس .. سأقتل ابن الفاجرة ذاك . التفت سليم إلى جاندي :

– يا جاندي ! مادام الأمر كذلك فستمكث إلى جانب الجثة .. يجب أن نخرج جميعاً .

انطلق الجميع ومكث جورج مع جاندي هنيهةً وهما يرنـوان إلى المـرأة الميتة . قال جارلي :

– جورج .. تعال أنت أيضاً .. سر معنا حتى نعلم بأنك بريء من هذه الجريمة .

سار جورج أمامه متباطئاً يجرجر قدميه .. وبعدما خرج الجميع جلس جاندي على الحشيش ينظر إلى وجه زوجة جارلي ، وقال في كآبة :

– يا للفتى المسكين ! .

اختفى صوت الرجال . كان جوّ الإسطبل يزداد ظلمةً كلما مرّ الوقت ، وكانت الحيوانات تتمرّغ في مرابضها فتصلصل أرسانها .

تمدد جاندي فوق الحشيش ، وغطّى عينيه بيديه .

* * *

الفصل السادس

في نهاية ذلك الأصيل ، كان نهر (ساليناس) يبدو عميقاً ، أخضر ساكناً وكأنه غارق في السبات . كانت الشمس قد تقهقرت عن الوادي وبدأت تتسلق متن جبل (غابيلان) ، وكانت الجبال السامقة والذرى الشامخة قد اصطبغت بلونٍ أحمرٍ قانٍ .. بيد أن بعض الظلمة كانت قد هيمنت على وسط أشجار الحور بالقرب من ضفاف المياه الساكنة الساجية . وكان ثعبان مائي يشقُّ عباب النهر وقد برز رأسه من فوق الماء ، يتحرك مثل مثقافٍ مترنحاً متأرجحاً هنا وهناك . اجتاز المياه الصافية ، وحين وصل إلى مجمع الماء العريض ألقى نفسه بين براثن طائرٍ من الطيور التي تقتات على الأسماك .. تلقفه منقار الطائر بأناة ودون جلبة .. ازدرد المنقار ذلك الثعبان من جهة الرأس ، وبقي الذيل متأرجحاً خارج المنقار .

من بعيد هبّت زوبعة عاتية ضربت أعالي الشجر كموجة ، فتأودت أغصان شجر الحور ، ومادت واختلطت الأوراق واضطربت ولاحت ألوان فضية ، وتموجت صفحة المياه الخضراء وتجعدت بفعل الرياح الخفيفة .. ثم انتهت الزوبعة بالسرعة التي بدأت بها ، وران الصمت من جديد في الأرجاء. كان الطائر الذي اختطف الثعبان قد أخلد إلى السكون دون حراك، وكانت أفعى صغيرة تحرك رأسها هنا وهناك ، وهي تسبح إلى أعلى النهر.

خرج لانيا من بين الأراضي المقفرة .. كان يسير صامتاً كما يتحرك القمر الساري في السماء .. صفق الطائر ، آكل السمك بجناحيه ثم خرج من بين المياه الساكنة في وثبةٍ واحدة ، حلّق فوق النهر ومضى ، وضاعت الأفعى الصغيرة بين نبات القصب بجانب النهر .

ببطءٍ شديد اقترب لانيا من ضفة النهر .. جلس القرفصاء ومال على المياه وشرع يشرب متمهلاً متأنياً ، وعندما تقصف غصنٌ صغير تحت وطأة ثقل طائر رفع رأسه كليةً وفتح عينيه ونصب أذنيه ، وحين أبصر الطائر خفض رأسه مرةً أخرى واستأنف الشرب حتى ارتوى .. ولكي يستطيع مشاهدة الطريق برمته ، اضطجع على أحد جانبيه بجانب النهر ووضع يديه بينهما .

كانت الأضواء التي تبتعد عن الوادي وتتبدد شيئاً فشيئاً تسطع فوق ذرى الجبال وقمم الهضاب الشامخة . حدّث لانيا نفسه بهدوء :

– وهل أنسى ؟ سأختبئ بين الأدغال وسأنتظر قدوم جورج .

أسدل قبعته على عينيه وقال :

– سوف يؤنبني جورج .. وسيقول : « لولاك لكنت خليّ البال مرتاحاً » .. أدار رأسه ونظر إلى الجبال المتألقة :

– أستطيع الذهاب إلى هناك للبحث عن كهف . ثم تابع مغمغماً :

– لن أذوق ربّ البندورة مرة أخرى .. ولكن لا بأس .. إن رغب جورج عني ورفض أن أرافقه انطلقت وذهبت .

في تلك اللحظة برزت في ذاكرة لانيا امرأة بدينة صغيرة الحجم ضئيلة، مسنة على عينيها (نظارات) سميكة ، ترتدي فوق ملابسها (صدرية) ذات جيوب . كانت المرأة متأنقة ، نظيفة ، تنظر إليه نظرات حادة ، وعندما فتحت فمها تكلمت بصوت لانيا :

– كم مرة قلت لك .. كم مرة .. أصغِ إلى كلماتي .. إن جورج فتى لبيب وهو يحبك .. ولكنك لا تعبأ بذلك .. دائماً تجترح الشرور .

أجاب لانيا :

– لقد جاهدت بكل ما أوتيت من قوة أيتها الخالة كلارا .. ليتك تعرفين كم جاهدت .. ذاك أمرٌ فوق طاقتي .

استأنفت المرأة حديثها بصوت لانيا :

– إنك لا تفكر في جورج قط .. لقد قدّم لك كل شيء ، ولم يدّخر وسعاً ، فلو أنه وقع على فطيرة لتقاسمتماها مناصفةً ، بل لآثرك بالحصة الكبرى .. ولئن نال يوماً شيئاً من ربّ البندورة لتخلى لك عنه .

خفض عنقه وقال :

– لقد حاولت كثيراً أيتها الخالة كلارا، إنك لا تعلمين كم أنا نادم .

قاطعته المرأة :

– لو لم تكن في معيته لكان خلي البال .. وادّخر أمواله لنفسه ولاستطاع الذهاب إلى الماخور للمتعة أو استطاع ممارسة رياضة البليادرو .. ولكنه الآن منشغلٌ بك . قال لانيا في تحسرٍ وهمّ وهو يئن :

– إن رحيلي هو أفضل لي وأجدى .. فإن جورج لن يرضى أن أقوم بتربية الأرانب .

اختفت الخالة كالارا ، وظهرت في ذهن لانيا أرنب ضخمة الهيكل . وقفت الأرنب قبالته وجلست على ذيلها ثم حركت فمها وأنفها .. الأرنب أيضاً نطقت بصوت لانيا :

– سيعتني بالأرانب ! .. هل رأيتم مثل هذا الأبله ؟ إنك لا تساوي قلامة أظفارها .. سوف تنساها وتهملها . ستقتلها جوعاً .. وهذا كل ما ستفعله .. وإذ ذاك ماذا سيقول لك جورج ؟ . قال بصوتٍ مرتفع :

– لا .. لن أنسى .

– لن تنسى .. ما أنت وذاك .. يا لتفاهتك .. أي شيء أنت ؟ الله يعلم أن جورج لم يألُ جهداً كي يخلصك من الغرق في النهر .. لقد بذل كل ما في وسعه أن يبذله ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ أتحسب أن جورج سيسمح لك برعاية الأرانب ؟ .. يا لسذاجتك .. سيضربك ضرباً مبرحاً .. إنه لن يبقي عليك .. سيمعن في ضربك ، فهل فهمت أيها المأفون ؟ .

عندئذٍ اهتاج لانيا :

– لن يفعل شيئاً كهذا .. لن يصنع بي جورج مثل هذا الصنيع .. أعرف جورج .. أعرفه منذ دهر .. لم يضربني ذات يوم .. إنه يحبني .. ولا تطيب نفسه لإيذائي .

– هذا صحيح .. لكنه اليوم ضجرٌ متبرِّم ، وسوف يؤلمك إيلاماً شديداً ثم سيهجرك . صرخ لانيا كمجنونٍ مطبق الجنون :

– لا .. لا .. لن يفعل جورج ذلك .. إني أعـرف جـورج .. لقـد كنـا رفيقين .

لكن الأرنب أعادت حديثها بكثيرٍ من الأناة :

– بل سيتركك ويذهب .. سيتركك ويذهب أيها المعتوه الضخم . غطّى لانيا أذنيه بكفيه وصرخ :

– لا .. لا .. آه .. جورج .. جورج .. جورج .

خرج جورج بصمت من بين الأدغال ، فـاختفت الأرنـب بـين طيـات دماغ لانيا . سأله جورج هامساً :

– لماذا تصرخ كل هذا الصراخ ؟ .

جثم لانيا على ركبتيه وقال :

– لن تدعني وحيداً يا جورج .. أليس كذلك ؟ أنا أعلم أنك لن تدعني وحيداً .

اقترب منه جورج بخطواتٍ حثيثة ، وجلس إلى جانبه وقال :

– لا . فقال لانيا بصوتٍ عالٍ :

– كنت أعلم .. كنت أعلم أنك لست رجلاً من ذلك الطراز . لم يتكلم جورج ، ثم قال :

– ماذا ... ؟

- ألن تقاسمني ؟ .

- أية مقاسمة ؟ .

- مثل كل مرة يا عزيزي .. أرأيت ماذا كنت تقـول لي : لـو لم تكـن معي لقبضت خمسين دولاراً .

- أي رجلٍ أنت يا لانيا ! ألا تتذكر شيئاً مما حدث .. لكنك تتذكـر كل كلمة أتفوه بها .

- ألا تسمعني تلك الأحاديث يا جورج ؟ .

اضطرب جورج ، ثم شرع ، من دون رغبة وبطريقة فجة ، يقول :

- كنت سأجد لي عملاً .. وما كنت سأقع في محنة .

قال ذلك وتوقف عن الكلام ، فحثّه لانيا :

- استمر يا جورج .. وفي نهاية الشهر ..

- في نهاية الشهر حين أقبض خمسـين دولاراً سـأذهب في الحـال إلى الماخور . توقف مرة ثانية ، فنظر إليه لانيا مستثاراً :

- استمر يا جورج .. ألن تعنفني ؟ ألن تهينني ؟ .

قال جورج :

- لا . فقال لانيا :

- عندئذٍ سأمضي .. سأمضي لائذاً بالجبال ، أبحث لي عـن كـهف . إن كنت ترفضني فسوف أذهب يا جورج . ارتجف جورج مرة أخرى وقال:

- كلا .. إني أريد أن تبقى هنا إلى جانبي .

قال لانيا متودداً :

- قل لي كما كنت تقول لي دائماً .

- ماذا أقول لك ؟ .

- قل لي : ما الفرق بيننا وبين غيرنا ؟ . قال جورج :

- أولئك الذين هم على شاكلتنا ولا أهل لهم يدخرون بعض المال . ثم يبددونه دفعةً واحدة .. وهم ليس لهم أهل أو أصحاب يشغلون فكرهم . قال لانيا بحبور :

- ولكننا لسنا كذلك .. تكلم عنا .. وكيف نكون ؟

صمت جورج بعض الوقت وقال :

- إننا لسنا كذلك .

- لأن ...

- لأنك لي . زعق لانيا في سرور :

- ولأنك لي .. لأن كلاً منا يهتم بالآخر ويفكر به

كانت الأنسام المسائية تهبُّ رخيّةً فوق الأرض المنبسطة فتعبث بالمدة الخضراء ، وقد اقتربت أصوات الرجال كثيراً نزع جورج قبعته وقال بصوت واجف :

- انزع قبعتك يا لانيا .. إن الطقس معتدل والمناخ لطيف

لبّى لانيا طلبه وأطاعه مثل حملٍ وديع ، فنزع قبعته ووضعها أمامه .. كانت أجواء الوادي تزداد اعتدالاً كلما مرّ الوقت ، ويزداد المكان ظلمةً ، وكان الهواء ينقل إلى أسماعهما أصوات الأغصان المتقصفة . قال لانيا :

– وأخيراً .. ماذا سيحدث ؟ قل لي .

سمع جورج الصخب الآتي من أعلى النهر ، فطفق يتحدث وكأنه يؤدي عملاً مملاً :

انظر إلى الطرف الآخر للنهر يا لانيا لأحدثك حديثاً مسهباً ، لتتصور ما أقول لك وكأنك تراه . أدار لانيا رأسه ونظر إلى الطرف الآخر ، نظر إلى جبل غابيلان الملفع بظلمة الليل . قال جورج :

– ستكون لدينا مزرعة صغيرة .

قال ذلك ووضع يديه في جيوب معطف لانيا ، وتلمّس مسدس كارلسون الـ ***Luger*** ، وأزال مسمار الأمان ، وبيده الأخرى انتزع المسدس من حول خصر لانيا ووضعه على الأرض ، ثم أدام النظر إلى قفا رأس لانيا ، إلى النقطة التي تربط الجمجمة بعظام الرقبة . نادى رجل من أعلى النهر .. فردّ آخر ملبياً النداء . قال لانيا :

– هيا .. ابدأ .

رفع جورج المسدس ، فارتجفت يداه .. خفض يده . قال لانيا :

– هيا .. تكلم .. ستكون لنا مزرعة صغيرة .. قال جورج :

– ستكون لنا مزرعة صغيرة .. وقد نقتني الخنازير والدواجن ، وستكون لنا أرض لزراعة البرسيم أيضاً .

قال لانيا صارخاً مبتهجاً :

– لأجل الأرانب . قال جورج :

– لأجل الأرانب .

– سأعتني بالأرانب .

– ستعتني بالأرانب . جنّ لانيا من الفرح :

– سنعيش كالأثرياء .

– أجل .

– ما هكذا يا لانيا .. انظر إلى أطراف النهر .. ألا يخيل إليك أنك ترى مزرعتنا ؟ . لم يتكلم لانيا .

نظر جورج إلى السدس الملقى على الأرض .. وفي هذه اللحظة سمعت أصوات أقدام تدبُّ على الأرض بين الأدغال .. التفت جورج ونظر إلى مصدر الصوت . قال لانيا :

– تابع يا جورج .. متى سنشتريها .

– قريباً .

– كلانا

– كلانا ... سوف يعاملك الجميع بالحسنى .. ولن نقع في المتاعب .. ولن نؤذي أحداً .. ولن نسرق أموال الآخرين .

قال لانيا :

- كنت أحسبك ساخطاً عليّ .

قال جورج :

- كلا يا لانيا .. لست ساخطاً عليك .. ولن أسخط عليك أبداً .. الآن أيضاً لست ناقماً أو ساخطاً عليك .. إني أريد بعث الطمأنينة في نفسك.

ازدادت الأصوات اقتراباً ... تناول جورج المسدس وأصغى إلى ناحية الأصوات . قال لانيا متوسلاً :

- لا بد أن ننهي هذا المشروع ... لا بد أن نشتري مزرعتنا الصغيرة.

- أجل .. أجل .. لا بد أن نشتري .. كلانا سنفعل ذلك .

رفع جورج المسدس دون أن يحرك يده ، أمسك بالمسدس وقرّب فوهته من القفا ... كانت يده ترتعش دون هوادة ... وبعد هنيهة تغيرت ملامحه ، ورسخت يده ... أطلق ... بعدما تسلق صوت المسدس الروابي والتلال عاد أدراجه إلى الأسفل .

تحرك لانيا من مكانه ... في البدء انزلق ببطء . انكفأ على وجهه فوق الرمال ودون أن يبدي حراكاً ظلّ راقداً على الأرض . ارتجف جورج ونظر إلى سلاحه ثم قذفه بعيداً عن ضفاف النهر فوق ركام الرماد .

كانت أصوات الرجال وأصوات أقدامهم قد ملأت المكان بين الأدغال وبين الشجر . سُمع صوت سليم :

- جورج .. أين أنت يا جورج .

لكن جورج كان يقتعد مكانه بـالقرب مـن النـهر يعـاني أشـد ضـروب البؤس والتعاسة والحزن والندم ينظر إلى يده التي استخدمت السلاح .

وصل الرجال إلى الأرض المنبسطة .. كان جارلي في مقدمتهم . وشاهد لانيا الذي خرّ صريعاً على الرمال :

– هل قضيت عليه ؟ .

اقترب من لانيا وحدّق فيه ثم التفت ونظر إلى جورج وقال متلطفاً :

– لقد أطلقت في القفا تماماً .

ذهب سِليم دون استئذان إلى جورج وجلس إلى جانبه وقال :

– لا تأسف عليه ... ربما كان المرء مكرهاً .

أما كارلسون فقد وقف مطلاً فوق رأس جورج وقال :

– كيف فعلت ذلك ؟ . قال جورج بصوت مرهق وأجش :

– هذا ما كان .. لقد فعلت .

– وهل وجدت معه مسدسي ؟ .

– نعم كان يحمل مسدسك .

– إذن فقد أمسكت به ، وانتزعت المسدس منه وقتلته .

– أجل .. هذا ما فعلته .

كان صوت جورج يصدر وكأنه الهمس ، ولم تكـن عينـاه لتكفّـان عـن النظر إلى يده اليمنى التي بها الرصاص . أمسك سِليم بمرفق جورج وقال :

– انهض يا جورج .. فلنذهب ولنشرب شيئاً معاً .

نهض جورج بمساعدة سليم وقال :

– أجل .. فلنشرب شيئاً .

– لقد كنتَ مقسراً على هذا العمل يا جورج . أقسم بشرفي .. لقد كنتَ مقسراً على ذلك . هيا نذهب ...

رافق سليم جورج حتى المر ، ومن هناك سارا معاً إلى الطريق العـام .

كان جارلي وكارلسون يراقبانهما . قال كارلسون :

– ناشدتك الله .. قل لي : ماذا دهاهما ؟ .

*** انتهى ***





الفئران والرجال

رواية

